النصر الإلهي ومنهج التعامل مع الأعداء

العلامة الشيخ محمد مهدي الآصفي

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب
النصر الإلهي ومنهج التعامل مع الاعداء
تأليف
آية الله العلامة الشيخ محمد مهدي الآصفي
إعداد وتحقيق وتصحيح
الدكتور الشيخ حسين اليوسف
الطبعة
الأولى، ٢٠٢٤م
نشر
مؤسسة حفظ ونشر تراث العلامة الآصفي
البريد الإلكتروني
m.m.alasefi@gmail.com

الفهرس

الإهداء ٧
كلمة المؤسسة ٨

علاقة النصر بالله تعالى في ساحة المعركة

علاقة الثورة بالله ١٣
فصل العقيدة عن السياسة ١٥
أهمّ عناصر النصر ٢٥
العنصر الأول: القوّة ٢٥
العنصر الثاني: المال ٢٩
العنصر الثالث: التسديد والتعليم والهداية ٣٠
العنصر الرابع: التثبيت والثقة بالنصر ٣٢
شُبهة ٣٤
جواب الشبهة ٣٥
شروط النصر ٣٨
الشرط الأول: مشيئة الله ٣٨
شروط تحقق المشيئة الإلهية ٣٩
الشرط الثاني: العمل ٤٠
الصفة الأولى: التقوى ٤٠
الصفة الثانية: الإخلاص ٤١
الصفة الثالثة والرابعة: الصبر والصلاة ٤٢

منهج التعامل مع الأعداء في القرآن

تمهيد ٥٩

الفصل الأول: معرفة العدو في القرآن ٦٠

١. تشخيص العدو ٦٠

أمثلة من القرآن ٦١

الآية الأولى: عن المنافقين ٦١

الآية الثانية: عن الشيطان ٦٢

الآية الثالثة: عن الكافرين ٦٣

الآية الرابعة: عن النفس الأمارة بالسوء ٦٣

الوعي الكامل للعلاقة الاجتماعية ٦٤

الحذر من العدو ومكره وكيده ٦٦

٢. معرفة أساليب العدو ووسائله وجنده ٧٠

مقدمة ٧٠

أساليب العدو ٧١

الأسلوب الأول: الكيد والمكر والخداع ٧١

الأسلوب الثاني: الصد عن سبيل الله ٧٢

الأسلوب الثالث: الإشاعة ٧٢

الأسلوب الرابع: الإفساد والتخريب ٧٣

الأسلوب الخامس: الإغفال والإرصاد ٧٤

معرفة أساليب ووسائل الشيطان ٧٤

أساليب الشيطان ٧٥

الأسلوب الأول: الخطوات ٧٥

الأسلوب الثاني: حصار وتطويق الضحية ٧٥

الأسلوب الثالث: الرصد والمتابعة ٧٦

الأسلوب الرابع: الإغراء والتهييج ٧٦

الأسلوب الخامس: الوعود الكاذبة والخديعة ٧٦

الأسلوب السادس: الاستفزاز ٧٧

الأسلوب السابع: التسويل والإملاء ٧٧

الأسلوب الثامن: النّزغ ٧٨

الفهرس

الأسلوب التاسع: تزيين الفِتن ٧٨
الأسلوب العاشر: الوسوسة ٧٩
الأسلوب الحادي عشر: الهَمْز ٧٩
٣. الموقف من العدو ٨١
أ. الردع عن موالاة العدو ٨١
ب. العداء ٨٢
جـ. تجنب المودة القلبية ٨٢
د. الحذر ٨٣
هـ. رفض طاعة العدو ٨٣
و. المقاطعة الكاملة ٨٤
الفصل الثاني: من هم أعداؤنا؟ ما هي أساليبهم؟ ما هو الموقف منهم؟ ٨٥
أولاً: من هم أعداؤنا؟ ٨٥
ثانياً: ما هي الأساليب التي يستخدمها العدو؟ ٨٦
ثالثاً: ما هو الموقف من الأعداء؟ ٨٧
١. عدم التهيّب من العدو ٨٧
٢. عدم الاستهانة بالعدو ٨٧
٣. تطوير إمكانياتنا في مقاومة العدو ٨٨
٤. حرمة الركون الى العدو ٨٩
٥. التحصين تجاه الغزو الثقافي الغربي ٨٩
٦. الاستعانة بالله ٨٩
الفصل الثالث: تشخيص علاقة الكفار بالمسلمين ٩١
مقدمة ٩١
الآيات المشخصة لعلاقة الكفار بالمسلمين ٩١
١. الكفار مصدر الفتنة ٩١
٢. يردون المسلمين عن دينهم ٩٢
٣. يقاتلون المسلمين كافة ٩٣
٤. يتخذون دين المسلمين هزواً ولعباً ٩٣
٥. يقاتلون في سبيل الطاغوت، وهو وليهم ٩٤
٦. لا يحبون الخير للمسلمين ٩٤

٧. يصدون عن سبيل الله ٩٥
٨. ينقضون عهودهم مرة بعد أخرى ٩٥
العلاقة الايجابية مع الكفار ٩٦
الفصل الرابع: علاقة المسلمين بالكفار ٩٨
أولا: العلاقة النفسية بالكفار ٩٨
١. الاستعلاء على الكفار ٩٨
٢. النهي عن الانبهار بالكفار ٩٩
٣. تحريم مودتهم ومحبتهم ١٠٠
٤. البراءة من الكفار ١٠١
٥. النهي عن الركون إلى الكفار ١٠٢
ثانيا: العلاقة الاجتماعية بالكفار ١٠٢
١. حرمة الاستعانة بالكفار ١٠٣
٢. الإعراض عن الكفار ١٠٣
٣. الغِلظة في التعامل ١٠٤
٤. نفي السبيل للكفار على المؤمنين ١٠٥
فهرس المصادر ١٠٧

الإهداء

قَوام كلّ ثورة قطراتٌ من الدم، وقطرات من الدمع، وقطرات من الحبر. وإذا كانت الأيام حبستني أن أبذل في الثورة الإسلامية المباركة قطرات من الدم، فها هي قطرات من الحبر ممزوجة بقطرات من الدمع أُهديها إلى الإمام الخميني قدس سره قائد الثورة، وإلى أرواح الشهداء الأبرار، الذين بذلوا مهجهم في هذا السبيل.

محمد مهدي الآصفي

كلمة المؤسسة

بين يدي القارئ سلسلة تتضمن مؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي﵀ حول المقاومة وثقافة المقاومة، كان قد ألّفها الشيخ بنفسه أو ألقاها على شكل محاضرات، ثم تم تفريغها وصياغتها وطباعتها.

لطالما عُرف سماحة الشيخ﵀ بآرائه ومواقفه السياسية المؤيدة للمقاومة ضد أشكال الظلم لاسيما الحكومات الظالمة والاحتلال، ومن ذلك مواقفه الحازمة ضد حكومة الطاغية المقبور صدام حسين، وضد حكومة الشاه في إيران، وغيرهما من الحكومات الظالمة.

وعُرف أيضا بمواقفه المؤيدة للمقاومة الشريفة والحقيقية في كل مكان لاسيما حزب الله في لبنان، والمقاومة في فلسطين، ضد الاحتلال الإسرائيلي الغاشم والجبان.

من هنا ومن باب القيام بالتكليف أوّلا، وفي سبيل إشاعة ونشر ثقافة المقاومة ثانيا، قام سماحة الشيخ﵀ بترجمة هذه الآراء والمواقف على شكل مؤلفات أو محاضرات في مناسبات مختلفة.

وفي سبيل إحياء ونشر تراث الشيخ﵀، وإشاعة ونشر ثقافة المقاومة كما أكد سماحته وأراد، قامت مؤسسة حفظ ونشر تراث الشيخ الآصفي﵀ بما يلي:

جمع آثار الشيخ الآصفي حول المقاومة في سلسلة واحدة من حلقات، ومرتّبة منطقيا؛ وذلك لتعطي فكرة علمية متكاملة ومتسلسلة ومنطقية عن المقاومة في فكر سماحته، وليسهل على القارئ الاطلاع على هذه الآثار والأفكار العلمية، وحِفظًا لها من التشتت والضياع.

إعادة تبويب وترتيب وصياغة بعض العناوين والمباحث.

تحقيق وتخريج المصادر وتدقيقها وتصحيحها.

تصحيح المتن وتدقيقه نحويا ولغويا وطباعيا.

إعداد فهرس خاص بالمصادر والمراجع لكل حلقة من السلسلة، مع بيان هوية المصدر بشكل كامل ومفصل؛ ليسهل على القارئ مراجعة المصادر والتوسع في المطالعة.

ونضع بين أيديكم هنا الحلقة الرابعة من هذه السلسلة، على أمل أن يكون هذا الجهد منارة في طريق إشاعة ثقافة المقاومة ضد أي شكل من أشكال الظلم والعدوان، وخطوة في طريق إحياء تراث الشيخ الآصفي رحمه الله الثمين والقيّم.

مؤسسة حفظ ونشر تراث الشيخ الآصفي رحمه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾. محمد/٧

علاقة النصر بالله تعالى
في ساحة المعركة

علاقة الثورة بالله

الثورة الإسلامية المباركة في إيران، كانت ثورة مباركة بالمعنى الدقيق والواسع للكلمة، فقد أكسبت هذه الثورة الدعاة إلى الله تعالى فيضا من العطاء والتجارب الخصبة والدروس والعبر والأفكار والمفاهيم.

ولقد كانت هذه الدروس والأفكار والمفاهيم قائمة في تراث الدعوة فيما يحكي الله تعالى للعاملين في سبيله من قصص الماضين في الصراع بين الحق والباطل، وكانت قائمة في نفوسهم ووعيهم وقلوبهم، لكنها كانت نظريات وأفكاراً، آمنّا بها إيماناً نظرياً، فتحولت هذه النظريات، التي كنا قد آمنّا بها من قبل، إلى واقع حي متحرك، نلمسه، ونراه، وتملأ نفوسنا، وتعمر قلوبنا، وجسّدته الثورة الإسلامية، ومنحته الحركة والحياة والدم.

وأسأله تعالى أن يوفقني في هذا المؤتمر المبارك[1] - الذي شاء الإخوة

---

١. أُلقي هذا البحث في المؤتمر السنوي لرابطة الشباب المسلم في لندن عام ١٩٧٩؛ أي في الأيام الأولى لانتصار الثورة الإسلامية، وتعتبر الثورة الإسلامية من مصاديق مقاومة الحكومات الظالمة، وهو فصل من فصول المقاومة؛ بل من مصاديق مقاومة الاحتلال أيضا؛ لأن الدول المستعمرة كانت تسيطر على خيرات وثروات وأمن هذا البلد وبتفويض من الشاه، وهو فصل آخر من فصول المقاومة، وفي نفس الوقت وببركة هذه الثورة أقيمت الجمهورية الإسلامية القائمة على الدين المحمدي الأصيل؛ لأنه لا يمكن أن تكون هناك حكومة أمثل منها في

المؤمنون أن يقيموه تحت شعار: (الدعوة إلى الله) - أن أستخلص لكم أهم هذه الدروس والأفكار والمفاهيم.

وأول هذه الدروس وأهمها في نظري، معرفة الله تعالى من خلال الأحداث السياسية في الكون، والصراع القائم بين الإسلام والكفر في العالم والتاريخ...

فإن لمعرفة الله تعالى حقولا وآفاقاً واسعة، ومن هذه الآفاق والحقول معيّة الله تعالى للمؤمنين في معركتهم الضارية ضد الكفر.

وليس من شك أن لإحساس المؤمنين بمعيّة الله ونصر الله تعالى لهم قيمة كبيرة في دعم القلّة المؤمنة وشد صفوفهم ورفع معنوياتهم. ويولّد هذا الإحساس لدى الداعية شعوراً بالقوة والاستعلاء في ساحة المعركة، فهو لا يقاتل وحده، وإنما يقف في الساحة ويقاتل، ويهاجم، ويدافع، ومعه الله تعالى.

والله تعالى، في عمق وعي المؤمن وقلبه، أكبر من أي قوة، وأقوى من أي طاغوت مهما بلغت قدرته وشوكته، والمؤمنون يرددون هذا المفهوم ضمن شعار (الله أكبر) في كل يوم في صلواتهم عشرات المرات.

وهو يرسّخ في نفس الإنسان المؤمن إيماناً لا حدّ له بعظمة الله تعالى وجلاله وكبريائه وقوته وعزّته اللاّمتناهية، وتتضاءل أمام هذا الشعار قوة الطغاة وشوكتهم.

فتنقلب العقيدة، وينقلب الشعار، وتنقلب الصلاة إلى شعور بالقوة والعزّة.

وكذلك كانت الصلاة، فشعار (الله أكبر) في الصلاة يمنح المؤمنين قوة، وعزة، وصموداً، واستقامة، في ساحات المعركة.

فكيف اختفت حيوية هذا الشعار من حياة الأمة اليوم؟! وكيف فقدت الصلاة

تطبيق العدل الإلهي على الأرض، فكانت ثورة جامعة وشاملة. (من المحقق)

دورها في ساحات القتال؟! وكيف أصبحت الصلاة والأذان لا تعني شيئاً في حياة هذه الأمة يهابه أعداء الله؟! إنّ لذلك قصة أريد أن أحكيها لكم.

فصل العقيدة عن السياسة

فشل الاستعمار في فصل الدين عن السياسة نظرياً، على الأقل؛ في الأوساط الواعية المؤمنة من المسلمين، وظلت الطبقة الواعية المؤمنة من هذه الأمة تؤمن بأن السياسة شأن من شؤون الدين، وأنه في الصميم من الدين.

ولكن مما لا شك فيه أن الاستعمار نجح في فصل العقيدة عن السياسة؛ حتى على الصعيد النظري، في هذه الأُمّة.

وفي رأيي أن فصل العقيدة عن السياسة أخطر من فصل الدين عن السياسة[1].

---

١. مقصود الشيخ ﷺ من فصل الدين عن السياسة هنا والتمييز بينه وبين فصل العقيدة عن السياسة، هو فصل الفقه والفقهاء عن السياسة وإخراجهما من دائرة التدخل في حقل السياسة؛ سواء نظريا أم عمليا؛ أي إخراج السياسة بالكامل من الدين سواء من حيث التنظير والاجتهاد أم من حيث الحكم والسلطة وأي مسألة تتعلق بالسلطات الثلاث (التشريعية والتنفيذية والقضائية) وكل ما يتعلق بتشكيل الدولة كما روّجت له العلمانية؛ حيث نعلم أن هناك بابا في الفقه يتعلق بالأحكام الولائية أو الحكومية التي يصدرها الفقيه بعنوان كونه حاكما شرعيا، وهي بمجموعها تشكّل باب الأحكام السياسية، وقد طرح الفقهاء هناك الشروط التي يجب أن تتوفر في الحاكم الشرعي عند تصديه لولاية الأمر على الأمة الإسلامية وتشكيل الدولة الإسلامية إذا توفرت الظروف المناسبة لذلك. وقد بقي هذا الباب مسكوتا عنه ومغفولا عنه عند الشيعة الإمامية بعد الغيبة الكبرى فترة من الزمن، فكان الفقيه لا يتدخل في السياسة والحكم، وكانت وظيفته الإفتاء والموعظة فقط، واستمر الشيعة على هذا الحال إلى زمن المحقق الكركي؛ حيث بدأ الفقهاء يهتمون بالأحكام المتعلقة بالسياسة والحكم ووظائف الحاكم الشرعي، وشارك بعضهم في مناصب في السلطة آنذاك، ثم تطور البحث في السياسة بشكل تدريجي إلى زمن المحقق النراقي حيث طرح نظرية (ولاية الفقيه المطلقة)، ثم المحقق النائيني الذي طرح نظرية (المشروطة أو الدستورية)، ومن ثم جاء

فأصبح المسلمون يفهمون السياسة بصورة مستقلة تماماً عن الناحية الإيمانية والاعتقادية، ويفهمون العقيدة كذلك بمعزل عن السياسة على شكل حقلين منفصلين.

وكأنّ السياسة تجري في عالم مستقل عن مشيئة الله تعالى، وفق قوانين ومعادلات بشرية، وبموجب ميزان القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية، وليس لله تعالى مشيئة وإرادة في عالم السياسة.

ولكي أفتق الجرح الذي تعاني منه الأُمّة أحب أن أقول: في عقيدة الكثيرين أن الله تعالى خلق السماوات والأرضين والمجرات والكون الكبير، وخلق البحار والجبال والأنهار، وبأمره تعالى ينزل الغيث، وتخضرّ الأرض وتثمر الأشجار، وتتقلب الفصول، وله في كل ذلك الأمر من قبل ومن بعد.

الإمام الخميني ﷺ ليطرح نظرية (ولاية الفقيه المطلقة) وعلى نطاق واسع ويطورها، ويقوم بتطبيقها على أرض الواقع من خلال الثورة وإقامة الجمهورية الإسلامية والتي لأجلها عقد الشيخ ﷺ هذا البحث، وبذلك تكون قد عادت الأمور إلى نصابها وتم إثبات أن السياسة لا تنفصل عن الدين، وهو الشعار الذي رفعه الإمام الخميني ﷺ وكان يؤكد ويصرّ عليه كثيرا، وتكون الثورة الإسلامية قد سببت صحوة فكرية لدى الشيعة، وأصبح هناك ما يسمى بالفكر السياسي الشيعي، وأصبح مطروحا على الساحة السياسية، ويتم مناقشته وتداوله بين النظريات السياسية الأخرى. وبذلك يتضح الفرق بين هذا العنوان (فصل الدين عن السياسة) وبين عنوان (فصل العقيدة عن السياسة)؛ حيث إن فصل العقيدة عن السياسة تعني عدم تدخّل الغيبيات والماورائيات (الميتافيزيقيا) بالأحداث السياسية، وأنه في السياسة يجب أن تكون الحسابات مادية محضة، وأنها أمر دنيوي يخص الشعب والإرادة الشعبية. وخير دليل على بطلان هذه النظرية هو ثورة الإمام الحسين عليه السلام التي تفوق الحسابات المادية، ولو تم حسابها طبقا لهذه النظرية فسوف يكون الإمام الحسين عليه السلام هو الخاسر، لذلك نرفع شعار (انتصار الدم على السيف). وإلا فإن نفس عنوان (فصل الدين عن السياسة) عام ومطلق يشمل كلا النوعين من الفصل، حيث يعني أنه يجب إبعاد كل ما يتعلق بالدين عن السياسة والحكم والسلطة وأي أمر يتعلق بها. وللأسف اليوم هناك دول ذات أكثرية مسلمة، لكن الذي يحكمها أنظمة علمانية وليبرالية. (من المحقق)

ولكن السياسة تجري حول محور آخر، هو محور القوتين العظميين (كذا...)[1]، وحلفائهما، وشبكاتهما التجسسية، وقواتهما العسكرية، وقدراتهما الاقتصادية، وسياستهما، فإذا اتفقتا فالويل للعالم الثالث منهما، وإذا اختلفتا فالويل للبشرية... وهما إلى الوفاق والتفاهم أقرب في الغالب منه إلى الاختلاف.

وأما العالم الثالث[2] أو ما يسمونه كذلك[3]، فلا قيمة له في المعادلات السياسية، ولا يشكل قوّة واعتباراً، وليس للإيمان بالله تعالى وقدرته وقوته وعظمته شأن في هذا العالم، فهو تعالى القوي المتعال، ولكن السياسة لها شأنها الخاص ومعادلاتها الخاصة، ولا دخل لهذه العقيدة في المعادلات السياسية.

هذه هي الحقيقة المُرّة بكل مرارتها وقسوتها.

وكيف أصبحنا كذلك؟!

بكل بساطة؛ تعلمنا السياسة في مدرسة الاستعمار، وأخذنا نفهم السياسة، ونناقشها، ونحلل ونفسّر الأحداث السياسية، وأحياناً فيما بيننا نحن المؤمنون، وفي مجالسنا الخاصة، بهذه الذهنية.

---

١. إشارة من الشيخ إلى المعسكرين والقطبين: الغربي الرأسمالي المتمثل بالولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، والشرقي الشيوعي المتمثل بالاتحاد السوفييتي آنذاك وحلفائه. (من المحقق)

٢. دول العالم الثالث؛ اصطلاح سياسي أطلقه الاستعمار على الدول التي لا تنتمي إلى المعسكرين الرأسمالي (أمريكا وحلفائها) والشيوعي (الاتحاد السوفييتي وحلفائه)، وليست حليفة لهما، تقع غالبا في آسيا وأفريقيا. ويقصد من هذه التسمية الإهانة والاستخفاف بهذه الدول وقدراتها؛ لاسيما أن المسلمين ينتمون إلى هذه الدول. (من المحقق)

٣. ويطلق على هذه الدول أيضا تسمية (الدول النامية)، ويُقصد منه أن هذه الدول توصف بالفقر، والتخلف، وتدني مستوى المعيشة لأغلب سكانها. (من المحقق)

وهذه المدرسة السياسية التي أثرت في نفوسنا وفي فهمنا للسياسة من حيث لا نشعر، مدرسة يهودية قديمة معروفة؛ كانت ترى أن الله تعالى لما خلق الكون والإنسان، تخلّى عن الحكم والقبض والبسط والأمر في حياة الناس، وأصبح الإنسان هو الذي يحكم ويقبض ويبسط ويأمر في حياته. يحدّثنا عنهم القرآن الكريم في سورة المائدة:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[1].

وتحولت هذه العقيدة اليهودية القديمة إلى أساس علماني في فهم السياسة، وتحليلها، ومناقشتها، وترقب النتائج السياسية والتنبؤ بها، ثم تسلّل هذا المفهوم العلماني اليهودي عن السياسة إلى مجتمعنا الإسلامي، وأصبحنا نتعامل معه كحقيقة ثابتة لا نقاش فيها.

ومن الشواهد على ذلك الأحداث التي سبقت الدولة الكريمة المباركة في إيران، فقد كنت أتوخّى أن أفهم رأي المثقفين الواعين من المسلمين في خضمّ الأحداث، فلم أجد إلا قلّة قليلة كانت واثقة بالنصر، وأكثر من رأيت من المثقفين كانوا يرون أن الورقة الرابحة لأمريكا على كل حال، وأن نتائج هذه الحركة لا تتخطى سقوط وزارة وقيام أخرى، وأن هذه الثورة لا يمكن أن تتجاوز حدود الوفاق الدولي القائم بشأن إيران، وأن أمريكا لن تتخلّى عن إيران وعن النظام الملكي، وأن القضية لا تتجاوز محاولة أمريكية لتأديب الشاه وتحجيم سلطاته، وأن رأس الحبل بيد اليسار، والمؤمنون هم الضحايا، وأن مراجع الدين ينقصهم الوعي السياسي وقضيتهم خاسرة بالتأكيد، وأن ثورة الشارع لا يمكن أن تزعزع أركان النظام الشاهنشاهي العتيد، وأن هناك لعبة خفية تكشفها الأيام فيما بعد، وأن أمريكا لا يمكن أن تسكت عن آبار النفط وقواعدها العسكرية الضخمة في إيران، وأن روسيا لا يمكن أن تسكت عن الغاز ومصالحها في

١. المائدة: ٦٤.

إيران، وأنّ، وأنّ...

وهذا كله صحيح، على اختلاف مذاهب الناس في السياسة، لو كان الأساس لفهم السياسة: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾. أما عندما ننطلق من منطلق: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ فإن الأمر يختلف تماماً، والمعادلات السياسية وموازين القوى تتطاير، ويتضاءل دورها وقيمتها.

ولست أريد أن أناقش، ولست بصدد أن أنتقد، وأرى أن هذه الحالة الذهنية هي نتيجة الاحتكاك المستمر بالصحافة والإذاعة العلمانيين، وإنما أريد أن نتلافى ما سبق بتكوين ذهنية إسلامية قرآنية في فهم السياسة.

ولسوف نرى، إن شاء الله، أن القرآن يشبع هذه القضية، ويتناولها بكل دقة واستيعاب من أطرافها، ويصنع منها نظرية متكاملة الأطراف.

وحينما يستعرض المؤمن الداعية آيات القرآن الكريم بهذا الصدد، ويضعفها في إطارها، ويربط بينها، يعجب كيف غفل عن هذه الحقيقة التي يعطيها القرآن الكريم كل هذا الاهتمام والتأكيد!

لا أريد أن أدخل في تفاصيل الآيات الاعتقادية التي نتلوها في كتاب الله، والتي يربط القرآن الكريم فيها كل شيء في هذا الكون بمشيئة الله تعالى، وأن الأمر له من قبل ومن بعد، ولا يعزب عن علمه شيء، ولا يخرج عن قبضة سلطانه خارج، و﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[1]... فإن ذلك حديث يطول أمـره، وإنما أدخل مباشرة فيما وعد الله تعالى به المؤمنين من النصر، وأنه تعالى لن يتخلّ عنهم في صراعهم مع الباطل، وأن قوة الباطل وشوكته وسلطانه، لن تؤثر في نتيجة المعركة بحال من الأحوال، ولن تحول دون نصر الله تعالى:

---

١. البقرة: ٢٥٥.

فصول المقاومة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[2].

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[3].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[4].

﴿بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾[5].

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[6].

﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[7].

﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[8].

﴿وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا﴾[9].

﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[10].

---

١. محمد: ٧.
٢. غافر: ٥١.
٣. التوبة: ١٤.
٤. الحج: ٤٠.
٥. آل عمران: ١٥٠.
٦. الأنفال: ٤٠.
٧. الحج: ٧٨.
٨. المائدة: ٥٦.
٩. النساء: ٤٥.
١٠. الفرقان: ٣١.

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[2].

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3].

ويقْسم الله تعالى لنبيه ﷺ أنه لم يتخلّ عنه:

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[4].

ويجعل الله تعالى نصر المؤمنين حقاً عليه ﷻ:

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[5].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[6].

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[7].

ولكي تكون القضية حيّة تعيش في حياة الدعاة، يذكر لهم القرآن نماذج من تاريخ الصراع بين الحق والباطل؛ حيث تقف الأحزاب أمام حزب الله، ويواجه أنصار الطاغوت أنصار الله تعالى، ويعلن هذا الإنسان الضعيف الحرب على الله تعالى، ويكيد ويمكر بحزب الله.

---

١. البقرة: ٢٤٩.
٢. الشرح: ٥ - ٦.
٣. العنكبوت: ٦٩.
٤. الضحى: ١ - ٣.
٥. المجادلة: ٢١.
٦. الروم: ٤٧.
٧. الصافات: ١٧١ - ١٧٣.

وعندما ينظر الإنسان إلى هذا التقابل في المكر والكيد بين الله تعالى القوي العزيز، وخلقه الطغاة الضعفاء، لا يملك نفسه من أن يبتسم، ولا يتردد لحظة واحدة في نتيجة هذه المقابلة:

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[١].

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾[٢].

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

ثم يذكر تعالى لعباده أمثلة وشواهد من نصره لأنبيائه وعباده الصالحين في حربهم وصراعهم مع الطاغوت:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[٤].

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[٥].

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[٦].

وعن أنصار المسيح عليه السلام يقول تعالى:

﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[٧].

---

١. الأنفال: ٣٠.
٢. الأنفال: ١٨.
٣. يوسف: ٢١.
٤. هود: ٥٨.
٥. هود: ٦٦.
٦. هود: ٩٤.
٧. الصف: ١٤.

علاقة النصر بالله تعالى في ساحة المعركة

ثم يذكّر النبي ﷺ والمؤمنين بما سبق من تأييد الله تعالى له وللمؤمنين في صراعهم المرير مع المشركين:

﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾[3].

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[4].

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾[5].

هذه هي الحقيقة الربانية الكبرى التي كدنا أن ننساها أو نسيناها بالفعل، لولا رحمة الله، فكاد المؤمنون أن يتصوروا أنهم في ساحة الصراع مع الكفر، وحدهم، وقد كان الله معهم في مواقفهم حين البأس، وفي ساعات المحنة، وداخل الزنزانات، وكان الله معهم في غرف التعذيب، وبعين الله كانوا يتحملون العذاب والاضطهاد.

وليت المؤمنين كانوا يعلمون أن عذابهم بعين الله الرحيمة، وأن الله لو شاء

---

١. الأنفال: ٦٢.
٢. الأنفال: ٢٦.
٣. التوبة: ٤٠.
٤. آل عمران: ١٢٣.
٥. التوبة: ٢٥.

لأوقف قلوب معذبيهم، وشلّ أيديهم، وأعمى عيونهم عنهم، وأن اليد التي تعصر قلوبهم يد أرحم الراحمين، وأنهم يألمون ويضجون بسمع الله، ويتحملون السياط بعين الله، إلاّ أن ذلك خير لهم لو كانوا يعلمون، وأنّ أعداءهم يتعذبون، ويعانون كما يعانون، وتعتصر الآلام قلوبهم، كما تعتصر قلوبهم، ويفقدون أعزتهم كما يفقدون. وتلك سُنة الله في الذين آمنوا والذين كفروا وشاقّوا الله ورسوله من غير فرق، إلاّ أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، وتجدون من نصر الله تعالى وتأييده ما لا يجدون:

﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾[1].

وأن طريق ذات الشوكة الذي أراده الله تعالى لهم إلى النصر، خير لهم من أن يأتيهم النصر غنيمة باردة رخيصة:

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[2].

وأن نصر الله تعالى ليس ببعيد عنهم لو أنهم صبروا: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾[3].

وتسأل كيف ينصر الله الفئة القليلة الفقيرة الضعيفة على الفئة الكثيرة الغنية القوية؟! على خلاف ما يتصوره الناس في موازين القوى، والمعادلات السياسية، والحسابات العسكرية والاقتصادية.

وجواب القرآن الكريم واضح وبسيط، ليس فيه تعقيد الموازنات السياسية المعاصرة، والتي تعلّمناها، وتعودناها، رغماً عنا. إن الجواب بسيط بساطة

١. النساء: ١٠٤.
٢. الأنفال: ٧ - ٨.
٣. البقرة: ٢١٤.

التوحيد، وإن في التوحيد جواباً واضحاً لكل هذه التساؤلات.

ونرجع إلى القرآن الكريم مرة أخرى، لنلمس الخطوط التفصيلية لهذا القانون.

إن أهمّ عناصر النصر أربعة: القوّة، المال، التسديد، التثبيت.

وإن فئة آتاها الله تعالى هذه العناصر الأربعة، لا يحول شيء بينها وبين النصر.

ولنستعرض هذه العناصر الأربعة في كتاب الله.

أهمّ عناصر النصر

العنصر الأول: القوّة

وهي التي تملأ عيون الناس قبل كل شيء، وتوجّه أذهانهم وأفكارهم وسلوكهم، فإذا وثقنا، وآمنا بمعية الله تعالى للقلة المؤمنة، فلن تعوزها بعد ذلك قوة.

فإن ما في السماوات والأرض جند لله تعالى، يأتمر بأمره، وينتهي بنهيه، ولا يشذ عن ذلك خلق في السماء أو الأرض:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2].

---

١. الفتح: ٤.

٢. الفتح: ٧.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾[1].

فالبحار جند لله، تضطرب بأمر الله، وتسكن بأمر الله، فإذا جاء أمر الله تعالى، فلا تذر أحداً من الظالمين، واستمع إليه تعالى يحكي لنا قصة فرعون وجنده:

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[2].

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[3].

ولله جند من أمطار السماء وينابيع الأرض، فإذا أذِن الله لها أمطرت، وتفجرت، وتموجت الأرض بها، وأغرقت من كان فيها من الظالمين. فاستمع إليه تعالى في قصة نوح:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[4].

ولله جنود من الريح، لا تُبقي ولا تذر، إذا أَذِن لها الله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي

---

١. المدّثر: ٣١.

٢. القصص: ٣٩ - ٤٠.

٣. طه: ٧٨.

٤. القمر: ٩ - ١٥.

وَنُذُرِ﴾[1].

وإن من جند الله الصيحة، وما أدراك ما الصيحة! أرسلها الله على ثمود، فجعلهم كهشيم المحتظر:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[2].

وأرسلها الله تعالى على قوم شعيب، بعد أن أنجى شعيباً والذين آمنوا معه:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[3].

ولله جنود من الحجارة، تمطرها السماء، إذا أذِن الله تعالى لها، أهلك بها قوم لوط:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[4].

ولله تعالى جنود من الطير، يرسلها على الظالمين متى شاء:

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾[5].

ولله تعالى جنود من القمل، والضفادع، والجراد، والطوفان، يرسلها متى

---

١. القمر: ١٨ - ٢١.

٢. القمر: ٣١.

٣. هود: ٩٤ - ٩٥.

٤. هود: ٨٢ - ٨٣.

٥. الفيل.

يشاء على الظالمين:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ﴾[1].

ولله جند من الصاعقة يرسلها متى شاء، وقد أرسلها على ثمود:

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾[2].

ولله جنود من الملائكة، لا نراها، تدخل مع الفئة القليلة في المعركة، وتدافع عنها، وتحفظها بأمر الله، كما أمر الله الملائكة في معركة بدر أن ينزلوا ساحة القتال إلى جانب المسلمين:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[3].

وما أروع هذا الإمداد الإلهي في المعركة! يرسل الملائكة مع المؤمنين، ثم ينبئهم أنه معهم، فتتلاحم هذه المعية المزدوجة في مشهد إيماني رائع، في ساحة القتال؛ معية الملائكة للمؤمنين، ومعية الله تعالى للملائكة.

وكيف تتكافأ أطراف هذه المعركة، والله والملائكة، وجند الله من الأرض والسماء مع الفئة القليلة، وليس مع الفئة الكثيرة إلا نفر ضعاف، وحفنة من مال وحفنة من الأسلحة؟!

وهذه هي القوة التي يحسب الناس لها كل حساب في المعادلات السياسية.

وهل يتصور الناس قوة أعظم من هذه القوة، وجنداً أقوى من جند الله،

---

١. الأعراف: ١٣٣.

٢. الذاريات: ٤٤.

٣. الأنفال: ١٢.

وسلطاناً أقوى من سلطان الله؟!

ومع ذلك؛ فإننا نُسقط في كثير من الأحيان حساب هذه القوة الكبرى في الكون من المعادلات السياسية، عندما نفكر في السياسة، ونحلل الأحداث، ونتنبأ بالمستقبل، ونحسب لمستقبل الدعوة حسابها.

العنصر الثاني: المال

مهما تكن الفئة الكثيرة غنيّة، تملك ناصية الذهب والفضة، فإن الفئة القليلة تتمتع بتأييد الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[1].

ولقد كان المنافقون يتصورون أنهم لو حاربوا الدعاة في أرزاقهم، وقطعوا عنهم المال، تنضب الدعوة في نفوسهم، وتنقطع علاقتهم بالدعوة، وذلك في إطار تصوراتهم المادية الغبية الضحلة[2]:

---

١. المنافقون: ٧.

٢. والتاريخ يعيد نفسه، فكما حوصر المسلمون اقتصاديا آنذاك، فإن الاستكبار العالمي ومن يسيطر على الاقتصاد في العالم وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية، يقومون بمحاصرة كل دولة مناهضة لهم وتخالف سياستهم وتقاوم ظلمهم واستكبارهم اقتصاديا، ويفرضون عليها عقوبات اقتصادية لتجويع شعوبها وإجبارهم على الخضوع لهيمنة هذه الدول الاستكبارية، إن لم يستطيعوا غزوها عسكريا، فالجمهورية الإسلامية الإيرانية محاصرة اقتصاديا من حين انتصار الثورة الإسلامية إلى الآن، وفي كل مرة يتم تشديد الحصار وفرض العقوبات عليها، ومع ذلك وبعد أكثر من أربعين عاما ما زالت قائمة وقوية، وأصبحت دولة إقليمية وذات شأن في المنطقة. وقس على ذلك باقي البلاد والمجاميع التي ترزح تحت الحصار والعقوبات؛ مثل: سوريا، ولبنان، وفلسطين لاسيما غزة... إن هؤلاء حساباتهم مادية دائما، فيتصورون أن مثل هذه الأمور سوف تُركع هذه الشعوب، ولم يفهموا إلى الآن أن هناك من يملك خزائن السماوات والأرض، وأن هناك أناسا متّصلون مباشرة مع مالك هذه الخزائن وخالقها، يلجؤون إليه، ويتوكلون عليه. (من المحقق)

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا﴾[1].

فيردّ الله تعالى عليهم:

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[2].

العنصر الثالث: التسديد والتعليم والهداية

ثم ماذا تحتاج الفئة القليلة بعد القوة والمال؟ إنها تحتاج إلى التسديد والتعليم والهداية؛ لتعلم ماذا تعمل؟ وكيف تتحرك؟ وكيف تدعو الناس إلى الله تعالى؟ ومتى تختفي؟ ومتى تظهر؟ ومتى تتكلم بهمس؟ ومتى تصرخ بالحق جهاراً؟ ومتى تتجنب الموجة؟ ومتى تتصدى للموجة؟ ومتى تواجه الطغاة بعنف وقوة؟ ومتى تكلمهم برفق ولين؟ ومتى تتحمل الظلم وتصبر؟ ومتى تتصدى وتقاتل؟ وكيف تتعامل مع الناس؟ وكيف تجتذب الفارين من الله تعالى إلى الله؟ وكيف تداري الناس؟ وكيف تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؟ وكيف تتصرف تجاه الأحداث؟ وفي ظلال الطغيان تصمد وتصبر أم تهاجر وتفر بدينها؟ ومتى تنزوي داخل البيوت؟ ومتى تخرج إلى الشارع؟ ومتى تعلن الحرب وتفجير الشارع؟ وكيف تنظم الناس؟ وكيف تستقطبهم إلى جانبها؟ وكيف تكسب الرأي العام لصالحها؟ ومتى تظهر للناس مظلومة مضطهدة؟ ومتى تظهر قويةً عزيزةً؟ وكيف تقاتل؟ وكيف تعدّ للقتال؟ وكيف تخطط للمواجهة والحرب؟ وكيف تلقي الرعب في قلوب الأعداء؟ وكيف تمكر بهم؟ وكيف تستأصلهم؟ ... إلى آخر هذه التساؤلات.

ولا شك أن هذا كله علم قائم بالذات، علم الدعوة، ونور يلقيه الله في نفوس الدعاة إليه، يمشون به في الناس، ويتعاملون به مع الناس، ولا شك أن على

---

١. المنافقون: ٧.

٢. المنافقون: ٧.

الدعاة إلى الله تعالى أن يكتسبوا هذا العلم، ويتزودوا بتجارب من قبلهم، ولا شك أنهم في حركتهم الكبرى في التاريخ يصيبون الهدف حيناً، ويخطؤون آخر، وأن أعداء الإسلام في المقابل يفرّغون لهذه المهمة في حركتهم المعادية لله ولرسوله، أجهزة وأشخاصا ودراسات واسعة.

ولابد للقلة المؤمنة أن تتفرغ لهذا الجانب وتعطيه اهتمامها، كما لابد لها أن تولي جانب القوة والمال أيضاً اهتمامها، ولا تتركهما للصدفة...

ولكن، مما لا شك فيه، مع ذلك كله، أن الله تعالى لن يترك القلة المؤمنة لجهدها وعملها في هذا الحقل فقط، ولن تتخلّ عنهم المعية الإلهية في التسديد والتعليم، كما لم تتخلّ عنهم في ساحات القتال. والقرآن الكريم صريح في ذلك:

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾[1].

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

وكل ما يحتاجه الداعية في حركته هو أن يشير عليه أحد بالرأي الصحيح والدلالة، ويسدده في الرأي، ثم يضم يده إلى يده، وقوته إلى قوته، ويعينه على مسؤولياته وحمل ما لا يطيق حمله. وقد ضمن الله له كلّا من هذين الأمرين: «الدلالة» و«العون»، فضمن تعالى له الدلالة بقوله: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، والعون بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

ويرزق الله تعالى الدعاة إليه نوراً يمشون به في الناس، يعرفون كيف يتعاملون مع الناس من أعدائهم وأصدقائهم، والمتفرجين على الطرفين، وكيف يتعاملون مع القلوب، والعواطف، والعقول، في الوقت الذي يسلب تعالى هذا

١. الفرقان: ٣١.

٢. العنكبوت: ٦٩.

النور من القلوب الكافرة:

﴿أَ وَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

العنصر الرابع: التثبيت والثقة بالنصر

من عناصر النصر التثبيتُ والثقة بالنصر، وارتفاع الحالة المعنوية في نفوس الدعاة. وهذه الأمور من خصائص الدعاة المؤمنين بالله، والنفوس المؤمنة هي وحدها التي يمنحها الله تعالى الثقة، والطمأنينة، والسكينة، والاستقرار، والثبات.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً﴾[2].

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾[3].

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

وهذه هي السكينة التي تمنح الإنسان استقرارا في النفس، وسكوناً لها من القلق والاضطراب في أحرج ساعات المحنة.

وبالإضافة إلى ذلك؛ فإن الله تعالى يمنح المؤمنين الدعاة ثباتاً على أرض المعركة، وثباتاً في الموقف، وثباتاً في الإيمان، وثباتاً في القول، وثباتاً في الدنيا، وثباتاً في الآخرة.

---

١. الأنعام: ١٢٢.

٢. الفتح: ٤.

٣. الفتح: ١٨.

٤. التوبة: ٥٦.

﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[2].

وليس هذا فحسب؛ وإنما يربط القلوب أيضاً، فإن القلوب تضعف في ساعة المحنة، ويتسرب إليها الضعف إذا قست المحنة وطالت، فيتساقط فيها أكثر الناس قوة واستقامة، إلاّ المؤمنين، فإن الله تعالى يربط على قلوبهم.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾[3].

فما أروع القلوب المؤمنة في ساعات المحنة، وفي ساحات القتال، وداخل زنزانات السجون، وتحت سياط الجلادين! إنها ثابتة مطمئنة، مرتبطة بالله، ساكنة، مستقرة، كأنها قُدّت من زُبر الحديد، وما قيمة الحديد تجاه صلابتهم واستقرار قلوبهم؟!

ومن أوضح الحقائق وأبسطها أنّ أصحاب هذه القلوب لا يتخطاهم النصر، مهما طالت محنتهم وتعاظمت.

وفي قبال هذه القلوب، قلوب المنافقين والكافرين والطغاة، فإنها في قمة سطوتها، واستكبارها، وتطاولها على الله ورسوله... ضعيفة، مهزوزة، مرعوبة، يساورها القلق، ولا يفارقها الخوف والاضطراب.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ﴾[4].

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ

---

١. إبراهيم: ٢٧.

٢. محمد: ٧.

٣. الأنفال: ١١.

٤. آل عمران: ١٥١.

فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1].

ولقد حسب هـؤلاء اليهود كل حساب، وحصّنوا حصونهم وفق هذه الحسابات، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، من داخل قلوبهم، فأدخل الرعب فيها، وهزمهم من حيث لم يكونوا يحتسبون.

ويصف القرآن الكريم حال هؤلاء المهزومين من المنافقين وصفاً رائعاً في حالتي الخوف والأمن:

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[2].

تلك هي الحالة النفسية لكل من المعسكرَين؛ معسكر الدعاة إلى الله، ومعسكر أعداء الله ورسوله.

شُبهة

وليس ينبغي أن يخطر على بال أحد أن الأمر قد اختلف في عصرنا عما كان عليه في العصور السابقة، فإن الصراع بين موسى عليه السلام وفرعون، وبين نوح عليه السلام وقومه، وإبراهيم عليه السلام وقومه، ورسول الله ﷺ وقريش واليهود... كان محفوفاً بالنصر للمؤمنين، وقد صدق الله وعده؛ حيث كانت الوسائل في الحرب والسلم متكافئة.

أما اليوم؛ وقد تسلح الطغاة بآخر ما استحدثه الإنسان من الأسلحة المدمرة والفتاكة، وانتزعوا كل شيء من أيدي المؤمنين، وفرضوا سلطانهم وقوتهم على كل جوانب الحياة، واستوعبوا كل مداخل حياة الناس، ومساربها، ومخارجها، وسلبوا عنهم كل قوة وصلاحية... فلم يبق مجال للتحرك، ولم يبق أمل في

---

١. الحشر: ٢.

٢. الأحزاب: ١٩.

النصر.

وكيف تُرى تتحول هذه القوة العملاقة إلى أيدي المؤمنين الدعاة إلى الله؟ وكيف يتخلص المؤمنون من أخطبوط أجهزة الأمن والاستخبارات التي تضيّق عليهم الخناق، وتكاد أن تحصي عليهم أنفاسهم؟

إن أقصى قوة فرعون كانت في أن يطلب من السحرة أن يتحدّوا بسحرهم موسى عليه السلام، وأن يصنع له هامان برجاً ليصعد عليه ويرى إله موسى. وإن أقصى قوة نمرود كانت في أن يصنع ناراً ليحرق فيها إبراهيم عليه السلام. وإن أقصى قوة أبي جهل كانت في حفنة من الأوباش يحيطون به، ويأتمرون بأمره.

وأما طغاة عصرنا، فهم يحصون على الناس أنفاسهم، ويملكون من الأسلحة الفتاكة ما لا تبقي ولا تذر، ومن الأنظمة العسكرية والأمنية والحزبية المعقدة، ما لم يكن يخطر على بال الدعاة في العصور الأولى.

جواب الشبهة

وجوابي على هذه الشبهة، وهي مع الأسف شبهة عميقة في النفوس، وإن كانت تبدو ضحلة وبسيطة... جوابي عليها شاهد من عصرنا، ودليل من كتاب الله.

أما الشاهد من عصرنا، فهو تحول القوة من طاغية إيران، ونظامه الرهيب، الذي كان يُضرب به المثل، إلى أيدي الدعاة، وانهيار الحصون والقلاع الأمنية، والعسكرية، والاقتصادية، والاستعمارية التي كانت تحميه، في أقل من سنة.

وأما الدليل من كتاب الله، وهو الأصل والأساس:

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا

قَلِيلاً ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾[١].

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[٢].

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[٣].

فلن تتبدل سُنة الله تعالى في نصر عباده المؤمنين، وهزيمة الطغاة الجبارين، ولن تتغير هذه السُّنة، ولن تتحول، ولن يؤثر عليها مرور الزمن... إنها سُنة الله، ثابتة، مستقرة، وليست صدفة، أو خاصة من خصائص الزمان تحدث مرّة أو مرتين ثم تنقطع.

إنها سُنّة، كما أن اختلاف الفصول في السنة سُنَّة، وكما أن شروق الشمس وغروبها سُنّة، وكما أن نزول الأمطار على الأرض سُنّة، وكما أن اختلاف ألسنة الناس سُنّة.

إن سنن الله لن تتغير، ولن تتبدل، وهي جزء من حقائق هذا الكون الكبير، أودعها الله تعالى فيه إيداعاً ثابتاً.

تلك هي حقيقة النصر الإلهي للقلّة المؤمنة على وجه الأرض، وكما ترون إن المماراة في هذه الحقيقة والتشكيك فيها، مع الالتفات، مماراةٌ في كتاب الله، وتشكيك في التوحيد.

فقد توخّيت في هذا الحديث ألّا أتجاوز حدود كتاب الله الذي يتفق عليه المسلمون جميعاً، ولا يشك فيه إلا مشكوك في إيمانه. وقد رأينا أن القرآن الكريم يَعِدُ القلّة بالنصر، وعداً مؤكداً من الله، والله تعالى لا يخلف وعده، ومن

---

١. الإسراء: ٧٦ - ٧٧.

٢. الأحزاب: ٦٢؛ والفتح: ٢٣.

٣. فاطر: ٤٣.

أصدق من الله قيلاً:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾[1].

ذلك وعد من الله، ثابت، مذكور في كتاب الله:

﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾[2].

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[3].

وبذلك؛ فإن الإيمان بالنصر من التصديق بوعد الله، والتصديق بوعد الله من الإيمان بالله.

وهكذا نرى ببساطة: أن الإيمان بالنصر وتدخّل المشيئة الإلهية لتحويل مجرى الأحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية لصالح الفئة القليلة من المؤمنين... جزء جوهري من عقيدتنا، وأساس من أسس إيماننا بالله تعالى، ولا نستطيع نحن بحال من الأحوال أن نفصل بين عقيدتنا والسياسة.

إن فصل العقيدة والإيمان بالله عن السياسة، وتياراتها الجارفة، ومعادلاتها المعقدة، جاء في فترة غفلة من هذه الأمة، ومع كل الأسف أن الناس استسلموا له سلوكياً ونظرياً أيضاً، وهو موضع المأساة والجرح. وكما سبق أن ذكرت: إن الجرح الذي تركه فصل الدين عن السياسة في جسم الأمة لم يكن بعمق وخطر الجرح الذي تركه فصل العقيدة عن السياسة في حياة أمتنا.

---

١. النور: ٥٥.

٢. النساء: ١٢٢.

٣. الروم: ٦٠.

وذلك أن الفصل الثاني[1] يمتد بطبيعته إلى عمق النظرية والمفهوم والذهنية الإسلامية، بينما اقتصر عمق المأساة الأولى على حال المسلمين في ممارستهم الاجتماعية والسياسية، بفعل الظروف السياسية القاهرة، وسَلِمت لهم مع ذلك عقيدتهم وذهنيّتهم، في نطاق الطبقة الواعية من هذه الأمة.

شروط النصر

إن وعد الله تعالى بالنصر قاطع لا يتردد فيه مؤمن، مهما قست الظروف، وامتدت المحنة، ولكن الوعد الرباني يتحقق عند توفر الشروط التي يطلبها الله تعالى منا. وأهم هذه الشروط هي:

الشرط الأول: مشيئة الله

فنحن نلتقي أولا بقوله تعالى:

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[2].

فهي مشيئة إلهية قاطعة، ويا لها من مشيئة مباركة! المنّة على المستضعفين من الرجال والنساء والأولاد، وتحويل القوة والسلطان إلى هؤلاء المستضعفين من أيدي الجبابرة والطغاة، والتمكين لهم في الأرض، ثم الشماتة بالطغاة والجبابرة الذين كانوا يتحكمون من قَبْل في دماء المسلمين وأعراضهم، ويستكبرون في الأرض.

إنه الانقلاب الحقيقي في ميزان القوى، وفي أمر الإمامة والقيادة في الأرض إنه إرادة الله: (وَنُرِيدُ).

---

١. أي فصل العقيدة عن السياسة.

٢. القصص: ٥ - ٦.

شروط تحقق المشيئة الإلهية

ولكن إرادة الله تعالى لها شروطها، ومن لطائف التعبير والسياق في القرآن الكريم فصل القضايا عن شروطها أحياناً ليبعث في نفوس المسلمين الأمل، وفي آية أخرى من كتاب الله نقرأ الوعد الإلهي بالتفصيل، ونقرأ شروطه بالإجمال:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾[1].

وهذه الآية الكريمة تُجمل الشروط في الإيمان والعمل الصالح:

ولا شك أن الإيمان هو الشرط الأول، وهو الأساس والقاعدة لكل جوانب الشخصية المؤمنة الداعية، وهو المنطلق لأفكاره ومفاهيمه وقيمه وسلوكه.

والنصر لا يشذ عن هذه القاعدة، فإن الإيمان بالله تعالى يمنح الإنسان المؤمن الثقة، والقوة، والتوازن، والطمأنينة، والسكينة، وهي أهم القضايا في تحقيق النصر، ولا يتحقق شيء من ذلك من دون الإيمان بالله.

يقول تعالى، فيما يثبّت به فؤاد الفئة القليلة المؤمنة، بعد نكسة أُحُد:

﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2].

والاستعلاء الحقيقي يتحقق عندما تكون الأمة مؤمنة، وما عدا ذلك بطر، وغرور، وباطل.

ويخاطب ﷺ المشركين من قريش، بقوله:

---

١. النور: ٥٥.

٢. آل عمران: ١٣٩.

﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

الشرط الثاني: العمل

وهو شرط متشعب كثير الأطراف، ويمتاز بصفات كثيرة؛ منها:

الصفة الأولى: التقوى

إن التقوى من أهم صفات العمل؛ وهي التزام حدود الله تعالى. وقد يستغرب بعض الناس الذين لم يألفوا الفكر الإسلامي، ولم يأنسوا بالقرآن الكريم أن تكون التقوى والتزام حدود الله تعالى في الحلال والحرام من أهم شروط النصر، ويتساءل: وما صلة الذنوب والمعاصي؛ سيّما لو كانت خارج حقل العمل والدعوة، بالنصر؟!

إن الذهنية الأوروبية تقف مستفهمة عن علاقة التقوى بالنصر، ولا تفهم أن تكون هناك صلة بين هذا وذاك، ولكن الذهنية الإسلامية التي بلورها القرآن الكريم لا تستطيع أن تفصل بين أطراف الشخصية، ولا تستطيع أن تفصل بين علاقة الإنسان بربه وعلاقته بالناس وعلاقته بالأشخاص وعلاقته بساحة القتال... إنها في النظرية الإسلامية كُلٌّ مرتبط، فإذا تفكك بعضه تهدم سائره، والقرآن الكريم صريح وواضح في ذلك:

﴿وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[2].

فمعية الله للمؤمنين مشروطة بالتقوى:

---

١. الأنفال: ١٩.

٢. البقرة: ١٩٤.

﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[2].

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3].

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾[4].

فالشرط الذي يجب أن يتصف به الداعية إلى الله تعالى بعد الإيمان: التقوى، وأي تهاون في ذلك أو تسامح في حدود الله وحلاله وحرامه يسلب عنه صفة الداعية المؤمن، ويخرجه من حظيرة الدعاة إلى الله تعالى.

إن التقوى (دار حصن عزيز، والفسوق دار حصن ذليل) ، فالتقوى تحمي صاحبها في حصن منيع من الشيطان ووساوسه، ومن أهواء نفسه وشهواته، وهي الخطوة الأولى من النصر، فإن ميدان الداعية الأول هو (نفْسُه)، فإذا أنجز مهمته في هذا الميدان، واطمأن من نفسه، وجاهد نفسه، تقع عليه بعد ذلك مسؤولية الدائرة الصغيرة من الجهاد.

ومن العجب أن تكون ساحة الحياة والصراع القائم بين الكفر والإيمان هي الدائرة الصغيرة لجهاد المؤمن، وساحة النفس، والصراع القائم فيها بين التقوى والفجور، هي الدائرة الكبرى لجهاد المؤمن.

الصفة الثانية: الإخلاص

فإنما يعمل الداعية لله، ويقاتل لله، ويتحمل ما يلاقيه في طريقه من

---

١. الأعراف: ١٢٨.

٢. البقرة: ١٩٤؛ والتوبة: ٣٦ و١٢٣.

٣. هود: ٤٩.

٤. الجاثية: ١٩.

العنَت والعذاب لله... وهذا الشرط روح عمل الداعية، وجوهر قيمة عمله. فإذا أدخل الشيطان في نفسه حب الدنيا والنزوع إلى شأن من شؤون الدنيا، وأفقده الإخلاص في عمله، فقد تمكن الشيطان من مصادرة عمله كله.

والله تعالى، حيث يَعِد عباده الصالحين بالمعية الإلهية والهداية، يشترط أن يكون الجهاد من أجله تعالى وفي سبيل مرضاته ﷻ:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1].

ويحذّرنا تعالى أن نكون نحن كالذين يخرجون من ديارهم بطراً، ورئاء الناس، وابتغاء متاع من متاع الحياة الدنيا من سلطان، ومال، وشأن غيره.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[2].

الصفة الثالثة والرابعة: الصبر والصلاة

قال تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[3].

وهما من أهم شرائط العمل، فإن العمل في سبيل الله تعامل مزدوج في آن واحد مع الله ومع الناس.

وتعامل الداعية مع الله صلاةٌ، ومع الناس صبرٌ.

ولابد له من أن يذكر الله تعالى، ويكون على ذكر دائم وصلة دائمة بربه ﷻ، وأن يفزع إلى الله بالدعاء فيما يعتري طريقه من عقبات، ومشاكل، وعوائق، تعوق تقدم

---

١. العنكبوت: ٦٩.

٢. الأنفال: ٤٧.

٣. البقرة: ١٥٣.

الدعوة إلى الله، وفيما يوسوس الشيطان في نفسه. وهذا اللجوء إلى الله (الصلاة)، يمنح المؤمن قوة، وثقة، ويمدّه بإمداد متصل من ربه ﷻ، في طريقه الشائك.

واستمع معي إلى طرف من أدعية الدعاة إلى الله من الأنبياء وعباد الله الصالحين، فيما كان يُلمُّ بهم من متاعب وصعوبات في طريق ذات الشوكة:

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[1].

وبإزاء تهديد فرعون يتضرع السحرة إلى ربهم بعد أن آمنوا:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[2].

ويفزع قوم موسى إلى ربهم في محنتهم بفرعون:

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[3].

﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

وهذا هو الطرف الأول: (الصلاة).

والطرف الآخر التعامل مع الناس: (الصبر). إن الصبر تعامل مع الناس، ومع حقائق هذا الكون، وسنن الله تعالى في هذه الأرض.

فإن لله سننا في أرضه، وفي حياة الناس، وفي مسير التاريخ، وما لم يعرف الداعية هذه السنن، ولا يعرف مداخلها ومخارجها، وكيف يتعامل معها، فإنه يفشل في أداء مهمته.

---

١. الأعراف: ٨٩.

٢. الأعراف: ١٢٦.

٣. يونس: ٨٥ - ٨٦.

٤. التحريم: ٨.

إن الفرد، والمجتمع، والعقول، والعواطف، والاقتصاد، والسياسة، والحكم، والرأي العام، والحركة، والثورة، والمال، والإدارة، والتاريخ... وكل ما يتصل بعالم الإنسان، يخضع لسنن إلهية ثابتة، كما تخضع الأشياء للسنن والقوانين الإلهية، وكما تخضع الجاذبية، والكهرباء، والبخار، وطبقات الأرض، والجبال، والبحار، والجَزْر، والمد، ونبات الأرض، لنواميس وقوانين إلهية ثابتة، كذلك عالم الإنسان بكل تعقيداته.

وما لم يعرف الداعية سنن الله تعالى في حياة الإنسان، والتاريخ، والفرد، والمجتمع، لا يستطيع أن يؤدي مهمته الأداء الحسن المناسب، فإذا عرف هذه السنن، وأحسن معرفتها، بما آتاه الله من نور، وبما يكتسب من تجربة وخبرة في حياته العملية، وخبرات وتجارب العاملين والمجاهدين من قبله... فقد حقق شرطاً هاماً من شروط النصر، فلابد أن يصبر على هذه السنن، ويعترف بها، ويعطي للزمان حقه، ولمراحل العمل حقها الثابت.

فإنّ الفشل أقرب شيء إليه، لو لم يحاول أن يعرف سنن الله في حياة الإنسان، أو حاول أن يعاكس التيار، ويخترق السنن، ويتجاوز مراحل العمل، ويتناسى دور الزمن، ويتجاهل أنه يتعامل مع إنسان آخر له إرادته، ورغبته، وشخصيته، وتتحكم في تكوينه وشخصيته سنن إلهية ثابتة... تماماً كما يفشل الفلاح، لو أنه لم يعرف متى يزرع، وأين يزرع، ومتى يحصد. فإذا تغافل عن سنن الله في وقت الزرع أو وقت الحصاد أو مكان الزرع، فإنه لا يجني من عمله غير الخسران.

وفي رأيي أن الدعاة إلى الله تعالى، لابد أن يلموا إلماما كافيا كاملا بتاريخ الدعاة إلى الله تعالى، وممارساتهم، في حياتهم، ومع الناس، منذ نبي الله نوح عليه السلام إلى عصرنا، وبصورة خاصة لابد أن يلمّوا إلماما كافيا بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، ليعرفوا سنن العمل قبل كل شيء. ولابد أن يعيشوا مع الناس، ويتعاملوا مع الناس،

ويقرأوا ويسمعوا، ويعملوا في صفوف الناس، ليعرفوا عن كثب سنن الله تعالى في حياة الإنسان...

ثم لابد أن يتزودوا بعد ذلك، بالصبر في التعامل مع الناس، والصبر في مواجهة الظالمين، والصبر في توعية المسلمين، والصبر في تحريكهم، وإعداد العدّة المادية والمعنوية لكل ذلك، وتحمُّل متاعب الطريق، وإعطاء الزمن دوره، والاعتراف بالزمن كعامل أساسي ـ في سنن الحياة ـ لنجاح العمل وتقدمه، والصبر على أخلاق الناس وكلامهم، والصبر على طول الطريق وبُعد الشُّقة، والصبر على الأسلوب، والصبر على المرحلة، والصبر على تحديات الظالمين، والثبات، والإعداد، والاستقامة، والاستمرار، والنَّفَس الطويل الواثق في العمل.

وطبيعي أن هذه المراحل الشاقة من العمل والصبر، لا يمكن أن يجتازها الداعية وحده، فالطريق أبعد من أن يقطعها الداعية إلى الله وحده، والحِمل أثقل من أن يحمله الداعية وحده، فلابد من أن يكون مع الله، ليكون الله معه، ولِيخفف عنه ثقل العمل، ويقرِّب له الطريق الطويل...

ولابد له إذًا من الصلاة، ولابد من أن يفزع إلى الله، ليكون معه في الطريق الشائك، ولابد أن يقترن الصبر بالصلاة، ليصل الغاية في مسيره، بمعية الله تعالى.

﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

فإذا استقام الدعاة إلى الله تعالى على الطريق الصعب، وصبروا، فإن النصر لن يتخطاهم، ورحمة الله تعالى لن تعدوهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾[2].

١. البقرة: ١٥٣.

٢. فصّلت: ٣٠.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

واقرأ معي كيف يؤدب الله تعالى نبيه بأدب النبوّة، ويعلّمه ألا يستعجل في طريق الدعوة، ويتعلم الصبر ممن سبقه من أولي العزم من الأنبياء:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾[2].

ومن قوم موسى المستضعفين جعل الله تعالى أئمة وقادة أورثهم سلطان فرعون بما صبروا:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[3].

ويأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يتّبع ما يوحى إليه، ويصبر مع قومه، وينتظر حكم الله:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ﴾[4].

وأحوج ما يكون الداعية إلى الصبر عندما تطول المحنة، وتقسو، فيستخفّه الذين لا يوقنون بالله:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[5].

وحبذا لو توقفنا لحظات عند هذه النقطة من البحث، فهي من أهم النقاط التي يعاني منها المؤمنون الدعاة، على اختلاف شعوبهم، وأوساطهم، في هذه

---

١. الأحقاف: ١٣.
٢. الأحقاف: ٣٥.
٣. السجدة: ٢٤.
٤. يونس: ١٠٩.
٥. الروم: ٦٠.

الفترة القاسية من تاريخهم، ويحتاج فيها المؤمنون إلى وعي اعتقادي لطبيعة المرحلة القاسية التي يمرون فيها، ونشير بهذا الصدد إلى نقطتين مهمتين:

١. إن فترة الابتلاء قد تطول على المؤمنين، وقد تكون قصيرة، وطول الفترة وقصرها يخضع لمستوى الإيمان والعمل الذي تقدمه الأمة المؤمنة، ولقوانين إلهية أخرى لا نعرفها، وقد تقسو المحنة والفتنة بالمؤمنين، وعادة تعتبر هذه القسوة مخاضاً للنصر، تنتبه خلالها الأمة، القطاعات الواسعة من الأمة، وتستقطب فيها الطلائع المؤمنة المجاهدة عطف الأمة وثقتها خلال هذه المحنة، والأمة تمنح عطفها وثقتها للعاملين في حالة المحنة أكثر مما تعطيها في حالة اليسر والرخاء.

ومخاض النصر (المحنة) قد يكون قاسياً على المؤمنين، ليس عليهم فحسب، وإنما على ذويهم أيضاً؛ من آبائهم، وأمهاتهم، وزوجاتهم، وأبنائهم، وأقاربهم الآخرين.

وقبل أن نسترسل في إكمال الموضوع أود أن ألفت نظر المؤمنين إلى ضرورة وأهمية الإعداد الداخلي لأسرهم وعوائلهم، فإن المحنة لا تكاد تصيبهم وحدهم، وإنما تصيب عوائلهم وأُسرهم أيضا، فإن كانوا لم يعدوا من قبل أفراد أُسرتهم لمثل هذه الفترات القاسية، فإن خطر التساقط والانهيار في داخل أفراد العائلة المؤمنة ليس ببعيد، وطبعاً؛ لا نريد أن نغفل عنصر الإمداد الإلهي الغيبي للعوائل والأسر الممتحَنة، في معنوياتها، وحياتها المادية، ولكن ذلك لا يعني أن الداعية لا يعد أفراد أسرته لمثل هذه الحالات القاسية التي تمر عليهم من قبل، ليحميهم من التساقط والانهيار، فإن الفتنة سيف ذو حدين، وسُلّم يصعد منه ناس إلى الله، ويهبط منه آخرون إلى الشيطان.

فلكي تكون هذه المحنة في حياة العاملين وأسرهم سُلّماً صاعداً، لابد أن

يتفرغوا لإعداد عوائلهم وأسرهم، إعداداً داخلياً، قوياً، في مرحلة سابقة.

ونقطع الحديث عن هذه النقطة لنعود مرة أخرى إلى صلب الموضوع، فأقول: إن فترة المحنة قد تطول وتقسو، ولكن لا ينبغي أن تتناول المحنة إيمان العاملين في سبيل الله بالنصر والتأييد الإلهي في حال من الأحوال، فإن النصر الإلهي حقيقة إيمانية في نفس الداعية، وحقيقة كونية في مشيئة الله تعالى، لن تتبدّل، ولن تتغير.

وقد يعيش العاملون في سبيل الله في ذروة محنة من هذه المحن القاسية التي مرت على الأنبياء، والمرسلين، وعباد الله الصالحين، وجرت بعد ذلك سنّة ثابتة لله، فيكاد الشيطان أن يمس إيمانهم بالنصر، ويزلزل من ثباتهم وثقتهم بالله وهم لا يعلمون أن النصر قريب وشيك منهم، وقد يكون في اللحظات الأخيرة من مخاضه العظيم.

﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1].

ويحدثنا القرآن الكريم عن السنة الإلهية في حياة العاملين في توقيت النصر، وضخامة الفتنة والمحنة، قبل النصر، وفي حال مخاضه، فيقول:

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾[2].

قد يكون النصر قريباً من المؤمنين، ولكن الله تعالى أخفى علمه عنهم؛ لحكمة له تعالى في ذلك، وقد يكون النصر حاصلا بين عشية وضحاها، ولكن الله تعالى حجب علمه عن المؤمنين؛ ليمتحنهم في محنتهم. فلا ينبغي إذًا أن تنال المحنة من إيمان العاملين وثقتهم بالنصر، ولا ينبغي أن يتسرب اليأس إلى

١. البقرة: ٢١٤.

٢. يوسف: ١١٠.

روحهم في حال من الأحوال.

﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[1].

٢. إن حالة المخاض، وهي المحنة، في حسابات البشرية طريق إلى النصر، وفي حساب الله تعالى غاية قائمة بذاتها؛ بل هي غاية الغايات في تكامل المؤمنين العاملين.

إن هذه المحن قد تطول، وتقسو، ليعلم الله تعالى ـ وهو العالِم ـ الذين جاهدوا من المؤمنين، والذين صبروا تحت وطأة المحنة.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[2].

فإن الإسلام في حياة الناس فصل وفرقان بين الحق والباطل، وفصل وتمييز بين الخبيث والطيب، ولا يفرّق بين الطيب والخبيث، ولا يميزهما عن بعضٍ أمرٌ أفضل من هذه المحن التي تتعرض لها الأمة، فيصعد قوم، ويهبط قوم آخرون، ومن هذا الصراع بين الحق والباطل، وبين جبهة التوحيد والشرك، فيطيب قوم، ويخبث آخرون.

إذًا؛ هذه المحن هي السُّلّم الإلهي لتكامل المسلمين العاملين في سبيل الله، وطريق الكمال طريق شائك وعسير، ولا يتكامل المؤمن في الرخاء واليسر، وإنما يتكامل في العسر والفتنة والمحنة.

إنه يتكامل تحت السياط والتعذيب وفي ظروف الهجرة القاسية، أكثر مما يتكامل في أي وقت آخر.

ويئنّ العاملون تحت وطأة المحنة، ويستغيثون، وكل ذلك بعين الله تعالى وسمعه.

---

١. يوسف: ٨٧.

٢. آل عمران: ١٧٩.

ولقد قلت من قبل: لو أن الداعية كان يعلم أن اليد التي تعصر قلبه يد أرحم الراحمين لخفّت عليه المحنة، وهان عليه أن ينشر بالمناشير، إذا كان ذلك بعين الله، وبإرادته، ورضاه، وفي سبيل مرضاته، وطريقه الذي يسلكه إلى الله تعالى.

فهذه المحن هي الطريق إلى الجنة، وهي المدارج التي يصعدها الداعية لتزكية نفسه وتطهيرها، وتكميل نفسه، والقرآن الكريم صريح وواضح في هذه الحقيقة، أيّما صراحة ووضوح:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

إنها لسذاجة في نفوس الناس أن يتصوروا أن الجنة، بمنازلها الرفيعة، ميسرة لكل أحد صام وصلّى، دون أن يمتحنه الله في إيمانه، ويعلم المجاهدين منهم والصابرين.

وأنها سنَّة لله تعالى قديمة، فلن تشذ هذه الأمة عن الأمم السابقة، ولن يشذ الدعاة في عصرنا، فيما يتعرضون له من محن وفتن، عن الأنبياء، والأولياء، وعباد الله الصالحين، والمجاهدين من قبل، فيما مسّهم من البأساء والضراء.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾[3].

---

١. آل عمران: ١٤٢.

٢. التوبة: ١٦.

٣. البقرة: ٢١٤.

علاقة النصر بالله تعالى في ساحة المعركة

ولو أن العاملين كانوا يعلمون بموقعهم من الله، وما يحيطهم من رحمة الله وهم في ظروف المحنة القاسية، ولو كانوا يعلمون وهم ثابتون، لا يتزلزل لهم قلب، تحت وطأة المحنة: أن ملائكة الله تتباهى بهم، وتهنئهم، لخفّت المحنة عليهم، وآثروا أن تقطع أعضاؤهم في سبيل الله، وتدوم بهم هذه المحنة حتى يأذن الله.

ولو أنهم كانوا يعلمون أن هذه المحن القاسية التي يمرون بها هي النصر الحقيقي لهم، وهي تعدّهم للغاية التي من أجلها خلقوا، وتسلك بهم سبيلا صاعداً إلى الجنة، لم تثقل المحنة عليهم.

إن الغاية والنصر الحقيقي في حساب الله هي هذه المحن، إذا خرج منها المؤمنون العاملون منتصرين، لم يتزلزلوا، ولم يضطرب لهم قلب، وأما النصر في الساحة، فهو فرحة فقط، وشتان ما بين حساباتنا وحسابات الله تعالى.

واستمعوا معي إلى هذه الآيات المباركة من كتاب الله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

ونقف وقفة قصيرة عند هذه الآيات المباركة... إن الفوز العظيم هو المغفرة، والجنة التي تجري من تحتها الأنهار، والمساكن الطيبة في جنات عدن، والطريق إلى هذا الفوز هو الإيمان والجهاد بكل متاعبه ومشاقه، وببذل الأنفس والأموال. ذلك الخير، ذلك الفوز، ذلك النصر.

---

١. الصّف: ١٠ - ١٣.

وأما الفتح الذي نحبه نحن، ونفرح به، فهو حاصل بالتأكيد، وهو قريب، ويبشرنا به الله تعالى:

﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولا ينبغي أن نشك فيه، ولا يُخلف الله وعده، ولكنّه فرحة فقط، نحبّها، وأمّا الفوز العظيم فهو أمر آخر؛ إنه المحنة، إنه حالة مخاض النصر، إنه الغاية من المخاض.

ولست أريد أن أقول؛ إن ما يكسبه العاملون في فترة المخاض لا تقل فقط عما يكتسبه العاملون في حالة النصر؛ بل أقول: إن الفوز العظيم في المخاض، وما النصر إلاّ فرحة، يحبها المؤمنون، ويبشرنا بها الله تعالى.

وقد قلت من قبل؛ إن المحنة سُلَّم صاعد ونازل، وكما يصعد منه أناس بتوفيق الله، يهبط منه أناس بإغواء الشيطان، ولا يفارق تأييد الله تعالى القلة المؤمنة في محنتهم، ولكنها على كل حال قاسية وصعبة، وبحاجة إلى كثير من الصبر، والثبات، وذِكرِ الله كثيراً، فإنّ ذِكرَ الله يبعث الطمأنينة والسكينة في القلوب.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1].

كما أن معايشة الأنبياء والمرسلين والدعاة إلى الله تعالى من السلف الصالح في حياتهم ومحنتهم، تبعث الطمأنينة والثبات في القلوب، ولقد كان الله تعالى يثبّت فؤاد نبيه ﷺ، بما يحكي له من قصصهم ومحنهم وثباتهم على القول الحق:

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[2].

---

١. الرعد: ٢٨.

٢. هود: ١٢٠.

علاقة النصر بالله تعالى في ساحة المعركة

وبعد؛ فقد جاء النصر، والحمد لله، في رقعة مباركة من رقاع العالم الإسلامي العريض، وحقق الله وعده، وله الحمد ملء السماوات والأرضين، وعدد أنفاس الخلائق، وله الشكر فوق شكر الشاكرين، وكما يحب تعالى ويرضى.

جاء النصر في هذه الرقعة الإسلامية بعد مخاض قاس، شديد، ومحنة قاسية، ثبت فيها أناس، ولله الحمد، وتساقط فيها آخرون، ونستغفر الله، وثبت فيها المؤمنون حيناً، ولله الحمد، وزلزلوا فيها حيناً، ونستغفر الله. ولسوف يتوالى النصر، إن شاء الله، متلاحقاً، مباركاً، متوالياً...

فقد انتهت فترة الظلمة، أو كادت أن تنتهي، وانقطع نفَس الاستعمار والشيطان والطغاة، وثبت أن نفَس المؤمنين في المعركة أقوى وأطول من نفَس الكافرين، ذلك أن:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

وفي نهاية هذه المرحلة القاسية من المحنة، نعود إلى الله تعالى لنشكره، ونعتذر؛ شكراً على ما أنعم علينا من الرحمة، واعتذاراً مما سبق منا في مرحلة الفتنة من الضعف، واليأس، والتقاعس، والزلل، وهو الحميد الغفور.

أجل فترة المحنة، هي أصعب فترات التعامل مع الله، وأشدها وقعاً على المؤمنين، وأكثرها أخذاً وعطاء في التعامل معه ﷻ.

وقد سبق من المؤمنين العاملين في هذه الفترة كثير من الزلل، والضعف، والخوف، وكادوا أن يجنحوا إلى اليأس، وكادت قلوبهم أن تميل إلى الراحة والعافية، تحت ضراوة المحنة، وزلزلوا أحياناً، وتعثروا أحياناً أخرى، وكادوا أن

---

١. البقرة: ٢٥٧.

يستسلموا لتشكيك المشككين، وتثبيط المثبّطين، عندما طالت عليهم الفتنة، وبعدت عليهم الشُّقة... ولكن الله تعالى ثبّتهم، وطمأنهم، وأمدهم بالقوة والإيمان، وأراهم آياته البيّنات، في يقظتهم، وأحلامهم، وأمسكهم من الزلل، وأقالهم من عثراتهم، وأعاد إليهم النافر من قلوبهم، وزجر عنهم الشيطان، وأبقاهم تحت المحنة ما تحملوا، فإذا نفذ صبرهم، أعمى عنهم عيون أعدائهم، وأصمّ آذانهم، وكمّم أفواههم.

ولقد كانوا، برحمة الله، يرون الله تعالى شاهداً وسامعاً وهم تحت السياط، فيخف عليهم وقع التعذيب، ويمرون أحياناً على مرأى ومسمع من أعدائهم فلا يرونهم برحمة الله.

ولقد كانوا يخطئون الخطأة، ويعثرون العثرة، فيسددهم الله. ولقد كانوا يتركون عوائلهم فارين، مهاجرين، أو مقبوضاً عليهم بلا مؤن، ولا حيلة، ولا رزق، فيرزقهم الله.

ولقد كانوا يخافون في غياهب السجون، وفي مآسي الهجرة أن تنحرف عوائلهم، أو كانوا يجزعون لفراقهم، فتعود إليهم عوائلهم أو يعودون إليهم، فيرون أن الله تعالى قد أسبغ عليهم رحمته وحمايته وتسديده.

ولقد كانوا يهاجرون إلى بلاد نائية، يفقدون فيها الأمن، والمال، والأهل، فيرزقهم الله الأمن، والمال، والأهل، والأصدقاء.

ولقد كانوا يخشون على إيمانهم أن يتزلزل، ومن أنفسهم أن يتساقطوا تحت وطأة التعذيب، فيمدهم الله بالإيمان على إيمانهم، وبالنور على نورهم، وبالقوة على قوتهم التي آتاهم من قبل.

ولقد كانوا يخشون ألا تتحمل أجسادهم قسوة العذاب، فيرزقهم القوة، والصبر، والجَلد في إيمانهم.

ولقد كانوا يخافون أن يتعرض الطاغية لأعراضهم، فتُظلم الدنيا في أعينهم، فيعمي الله عيون أعدائهم عن عوائلهم، وأعراضهم، ولا يمسونهم بسوء أو شر.

ولقد كانوا يخافون أن يتركوا من ورائهم آباء عاجزين، وأمهات عجزة، وأبناءً صغاراً، ونساءً لا حيلة لهم في العيش من بعدهم، فيعطف الله عليهم قلوب قوم مؤمنين، فيواسونهم في أرزاقهم، ويقاسمونهم لقمة عيشهم.

الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، عدد أنفاس الخلائق، الحمد لله فوق حمد الحامدين، والحمد لله عدد قطر الماء، والحمد لله كلما حمد الله حامد، وكلما سبّح الله مسبح، والحمد لله عدد الرمل والحصى، والحمد لله عدد أمواج البحار، والحمد لله كلما هبَّت ريح، والحمد لله كلما شرق شارق وكلما غرب غارب، والحمد لله كما يحب ويرضى.

ونستغفر الله مما سبق منا من زلل، وخوف، وميل إلى اليأس والدنيا، ونستغفر الله كلّما هجس في نفوسنا هاجس بأنَّ الله تعالى قد تخلّى عنا، ونستغفر الله من حب الراحة والعافية.

نستغفر الله من سقطات أعمالنا، ومن كبائر ذنوبنا وصغائرها.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1].

أجل؛ شُكر، واعتذار، وحمد، واستغفار، في نهاية هذه المرحلة من التعامل مع الله تعالى.

ولنقرأ معاً هذه الآيات البيّنات من كتاب الله تعالى، ونختم به هذا الحديث،

---

١. البقرة: ٢٨٦.

فمسك الختام كلام الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[1].

﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾[2].

١. النصر.

٢. الأحزاب: ٢٢.

منهج التعامل مع الأعداء في القرآن

تمهيد

تتكون الـعلاقات الاجتماعية من وجهين، أحـدهما المحبة والتعاون والتواصل والسلام، والآخر العداء والحرب والمقاطعة.

وهذا الوجه مهما حاول الإنسان إنكاره والتنكّر له، فإنه يبقى حقيقة قائمة في حياته، وهو يمثل ظاهرة اجتماعية لها جذورها النفسية والاجتماعية والحضارية سواء اعترف بها أم أنكرها.

ولها امتداد تاريخي منذ أول يوم لبدء الخليقة إلى يومنا هذا وإلى ما يشاء الله.

إن الإنسان تتوق نفسه إلى حياة يكتنفها الحب والسلام، ولا يريد الاعتراف بالوجه الآخر للحياة.

إلاّ أن هذه المشاعر لا تغير من هذه الحقيقة شيئاً، وعليه أن يعرفها ويتقبلها، ويحدد طريقة تصرفه معها.

عليه أن يعرف أن الناس من حوله شطران: عدو وصديق، ولابد أن يعرف كيف يتعامل مع الأصدقاء، وكيف يتعامل مع الأعداء، وكيف يحول الأعداء الى أصدقاء. وهذا البحث محاولة لاكتشاف المنهج القرآني للتعامل مع الأعداء.

فإن القرآن يقرّر وجود هذه الحقيقة الكبرى منذ نزول آدم وحواء عليهما السلام وإبليس (لعنه الله) إلى الأرض؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ البقرة/٣٦، ايذاناً ببداية المعركة التي سوف تمتد إلى قيام الساعة.

الفصل الأول: معرفة العدو في القرآن

١. تشخيص العدو

أعطى القرآن لمسألة تشخيص العدو اهتماماً كبيراً؛ حيث شغلت مساحة واسعة من القرآن؛ لأن العدو عادةً لا يظهر بهويته الحقيقية، وإنما يخفي نفسه وأهدافه تحت شعارات يخدع بها الآخرين، وهي بديل لهويته الحقيقية، وهذا جزء من سياسة التضليل الإعلامي التي يستخدمها العدو، مستغلاً بذلك سذاجة وبساطة الناس، الذين لا يميزون حقيقة العدو، ولا يدركون خطره إلا بعد فوات الأوان.

ومن هنا حرص الأنبياء عليهم السلام في جهادهم التاريخي ضد الطواغيت على تشخيص العدو أولاً قبل الدخول في مرحلة الصراع.

يقول القرآن عن لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

يصرّح عليه السلام بهوية أعدائه حتى يقطع عليهم الطريق، فلا يستطيعون التلبيس والتمويه على الناس، ويكشفهم ويشهرهم للناس.

وما أحوجنا - نحن - اليوم الى مثل هذا التشخيص الواعي الدقيق للعدو وأساليبه ومكره؛ لئلا نقع في شرك المؤامرات الإعلامية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي تحيط بنا... فإننا إذا أغفلنا عن أعدائنا، فلا يغفل عنا أعداؤنا.

---

١. الشعراء: ٧٥ - ٧٧.

منهج التعامل مع الأعداء في القرآن

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (أنتم تكادون ولا تكيدون، وتنامون ولا يُنام عنكم، وأنتم في غفلة ساهون)[1].

والإنسان إذا لم يشخص عدوه، ويكشف حقيقته، فإن العدو يستطيع أن يتسلل بشعاراته إلى عقر داره وحوزة نفوذه وعمله، فلا ينتبه إلا بعد أن يدخل العدو عليه داره.

ومن هنا؛ فإن التشخيص المبكر لهويته يعطي المؤمنين الفرصة للاستعداد لمواجهته، ويفوّت على العدو فرصة التلبيس والتمويه والمبادرة بالهجوم، لذلك نجد القرآن ينبهنا كثيراً إلى العدو الخبيث الذي يترصدنا وهو الشيطان، ويحذّرنا منه يقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[2].

إنه العدو الأكثر شراسة وقسوة، وفي نفس الوقت الأكثر مقدرة على التخفي، فإنه يدخل إلى نفوسنا من خلال أحب الأشياء إليها، حتى إذا انفتحت له أبواب النفوس، اقتحمها وتمكن من احتلالها والقضاء على نقاط القوة فيها.

أمثلة من القرآن

وفي القرآن تشخيصات دقيقة للعدو نقرأ عليكم طائفة من آياته:

الآية الأولى: عن المنافقين

يقول تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾[3].

---

١. الوارد في المصادر بهذا اللفظ: (أَنْتُمْ تُكَادُونَ وَلاَ تَكِيدُونَ، وَتُنْتَقَصُ أَطْرَافُكُمْ فَلاَ تَمْتَعِضُونَ، لاَ يُنَامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُون). نهج البلاغة، الخطبة: ٣٤، من خطبة له عليه السلام في استنفار الناس إلى أهل الشام، ص٤٣. (من المحقق)

٢. البقرة: ١٦٨ و٢٠٨، والأنعام: ١٤٢.

٣. المنافقون: ٤.

ولا بد لـ (المنافق) من هذا التشخيص والتشهير؛ لأنه لا يظهر بهويته الحقيقية، فهو يعلن الحب والولاء للمسلمين، ويضمر العداء والحقد والبغضاء لهم. ومن هنا؛ كان خطره أشد من خطر الكفار، الذين يظهرون ما يضمرون من العداء.

قال رسول الله ﷺ: (إِنِّي لَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلَا مُشْرِكاً، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَحْجُزُهُ إِيمَانُهُ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ كُفْرُهُ، وَ لَكِنْ أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ مُنَافِقاً، عَلِيمَ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَعْمَلُ مَا تُنْكِرُون)[1].

وقوله ﷺ: (يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ) إشارة إلى الوجه المفتعل الذي يظهر به المنافق وسط المجتمع الإسلامي، ومن هنا كان بحاجة إلى كشف وتشخيص؛ لكي يسقط عنه القناع، ويظهر بشخصيته الواقعية.

الآية الثانية: عن الشيطان

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[2].

وإذا كان المنافق يمتلك القدرة على إخفاء هويته بشكل جزئي، فإن الشيطان يستطيع ذلك بشكل أقوى، وهذا ما يضاعف من خطر الشيطان وشدة وطأته على الإنسان. ومن هنا؛ حرص القرآن كثيراً على تسليط الضوء على هذا العدو الخبيث العجيب في تكوينه، والذي يرانا ولا نراه. يقول تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[3].

وبالإضافة إلى ذلك؛ فهو لا يقتحم النفوس والقلوب بشكل واضح وصريح ومكشوف؛ بل من خلال الاستدراج البطيء، في خطوات وئيدة، يتلو بعضها

---

١. زين الدين العاملي (الشهيد الثاني)، منية المريد، ص١٣٦.

٢. فاطر: ٦.

٣. الأعراف: ٢٧.

بعضاً، فلا يتنبه الإنسان إلا بعد أن يسقط في شِرك الشيطان. وهذه السياسية الاستدراجية (سياسة الخطوة خطوة) هي التي يشير إليها تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[1].

الآية الثالثة: عن الكافرين

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً﴾[2].

إن الكافرين أعداء المسلمين، وإذا كان المنافق يتكتم في العداء، فإن الكافرين يعلنون العداء إعلاناً، وهناك حالة عدائية مشتركة للكفر والنفاق، مزيج من هذا وذاك، وهو ما نعيشه اليوم في أجواء التعامل مع دول الاستكبار العالمي، مزيج من النفاق والكفر، والحقد المضمر، والعداء المعلن...

الآية الرابعة: عن النفس الأمارة بالسوء

يقول تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[3].

النفس الأمارة بالسوء تأمر بالسوء والظلم، وهي عدوة الإنسان، تدعوه إلى السوء والفحشاء.

والمقصود هنا بالنفس الأمارة: الأهواء، والشهوات، والغرائز التي يحملها الإنسان بين جنبيه، ولا تزال تدفعه الى السوء، إلاّ أن يتحكم صاحبها فيها، ويملك أزِمَّتها، فإذا تحكم عليها انقادت له.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (المرء حيث وضع نفسه برياضته وطاعته، فإن

---

١. البقرة: ١٦٨ و٢٠٨، والأنعام: ١٤٢.

٢. النساء: ١٠١.

٣. يوسف: ٥٣.

نزّهها تنزهت، وإن دنّسها تدنست)[1].

ولأجل هذه الخطورة الكبيرة للنفس الإنسانية يحتاج الإنسان إلى أن يكون دائماً حذراً مراقباً لنفسه، ويحتاج إلى محاسبة، ومجاهدة النفس، وكفها عن السوء.

الوعي الكامل للعلاقة الاجتماعية

في الحياة الاجتماعية لابد أن نعرف الصديق، ونميز العدو معاً؛ لأن الإنسان إذا لم يعرف صديقه يخسر أصدقاءه، ويجد نفسه وحيداً، لا صاحب له في هذه الحياة الواسعة الكثيرة الهموم، وإلى ذلك يشير أمير المؤمنين (ع) بقوله: (من لا صديق له لا ذخر له)[2].

ولكن معرفة الصديق تمثل نصف المعرفة الاجتماعية، وهو وعي اجتماعي ناقص أو (نصفي)، إذا صح التعبير، والنصف الآخر معرفة العدو، ولا تقل أهميته عن معرفة الأصدقاء، وبهما يتحقق الوعي الكامل...

إن وعي الأصـدقاء دون الأعـداء نصف الوعي، والوعي النصفي لا يحصّن المجتمع، ولا يحصّن الفرد، وتبقى ثغرات الاختراق مفتوحة للعدو.

وقد كان بنو أمية يدركون هذا المعنى، فقد أطلقوا أيدي الناس في معرفة الإيمان والمؤمنين، وهذا نصف الوعي ولابد منه، ولكنهم لم يفسحوا المجال للناس أن يعرفوا الشرك والمشركين، وبذلك أبقوا فرص الاختراق في جسم المجتمع الإسلامي للمشركين مفتوحة.

إن معرفة الايمان والمؤمنين نصف المعرفة، ولكنه لا يغني عن معرفة

---

١. عبد الواحد الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، الحكمة: ١٩٢٧، ص١٠٤.

٢. المصدر نفسه، الحكمة: ١١٠٦، ص٦٣٦.

الشرك والمشركين... والناس إذا كانوا لا يعرفون الشرك والمشركين، لا يتمكنون من أن يحصّنوا مجتمعهم وأخلاقهم وثقافتهم وقلاعهم من المشركين.

ولكي يحكمهم أمير فاسق مثل يزيد ومروان وعبد الملك وهشام والوليد، باسم الإسلام، وتحت عنوان خلافة رسول الله ﷺ، لابد ان يمنعوا الناس من معرفة الشرك والمشركين، والظلم والظالمين، والفساد والمفسدين، وإلاّ فليس بإمكان أولئك المفسدين الطغاة من بني أمية أن يحكموا الناس ألف شهر من تاريخ الإسلام.

عن الإمام الصادق عليه السلام: (إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ أَطْلَقُوا لِلنَّاسِ تَغْلِيمَ الْإِيمَانِ، وَلَمْ يُطْلِقُوا تَعْلِيمَ الشِّرْكِ؛ لِكَيْ إِذَا حَمَلُوهُمْ عَلَيْهِ لَمْ يَعْرِفُوه)[1].

هذه المعرفة الناقصة للتوحيد غير كافية، ولا تحصّن المجتمع من خطر الانحراف، ولابد من معرفة الشرك إلى جانب التوحيد؛ ليتكاملا.

وإلى هذا الوعي الاجتماعي الكامل يشير أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: (أَصْدِقَاؤُكَ ثَلاَثَةٌ، وَأَعْدَاؤُكَ ثَلاَثَةٌ. فَأَصْدِقَاؤُكَ: صَدِيقُكَ، وَصَدِيقُ صَدِيقِكَ، وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ. وَأَعْدَاؤُكَ: عَدُوُّكَ، وَعَدُوُّ صَدِيقِكَ، وَصَدِيقُ عَدُوِّك)[2].

لكي نتمكن أن نعيش بخير، وننتفع بأصدقائنا، وننفعهم ونستنصحهم وننصحهم، ونستعين بهم ونعينهم، ولكي نتمكن أن نعيش بأمان ونحفظ أنفسنا وأصدقاءنا من أعدائنا، فلابد أن نعرف هذه الطوائف الستة - التي يشير إليها أمير المؤمنين عليه السلام في كلمته - معرفة كاملة.

إن أصدقاءنا ثلاثة:

---

١. محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج٢، ص٤١٥، ح١.

٢. نهج البلاغة، الحكمة: ٢٨٧، ص٤٦٨.

١. أصدقاؤنا، الذين يقفون معنا، وينصحوننا، ونستعين بهم.

٢. وأصدقاء أصدقائنا، الذين يؤازرون أصدقاءنا، ويقفون معهم، فهؤلاء أصدقاء لنا، وعلينا أن نحتفظ بصداقتهم وإن كنا لا نعرفهم، فإن أمر أصدقائنا يهمنا كما يهمنا أمر أنفسنا، وأصدقاء أصدقائنا أصدقاؤنا.

٣. وأعداء أعدائنا أصدقاء لنا، فإنهم يعينوننا على أعدائنا، ومن يعيننا على أعدائنا فهو صديق لنا، ما لم يعادنا.

وهذا القيد الأخير مفروض[١] في كلمة أمير المؤمنين عليه السلام، ومن دونه لا نستطيع أن نفهم كلام الإمام عليه السلام.

وأمّا أعداؤنا، فهم ثلاثة أيضا:

١. أعداؤنا.

٢. أعداء أصدقائنا، فإنهم بمثابة أعدائنا، ونحن إذا عرفنا العلاقة العضوية القوية في الإسلام بيننا وبين أصدقائنا[٢]، لا نشك عندئذ أن أعداء أصدقائنا أعداؤنا.

٣. أصدقاء أعدائنا، فإن اللحمة القائمة بيننا وبين أصدقائنا تقوم أيضا بين أعدائنا وأصدقائهم، فلا محالة يكون صديق عدوِّنا عدوُّنا.

الحذر من العدو ومكره وكيده

١. أي مقدّر محذوف، وهو أمر مسلّم ومفروغ منه.. ولا يجوز أخذه على إطلاقه؛ إذ قد يتفق أن يكون عدو عدونا عدوا لنا كما يمكن أن يكون صديقا لنا. (من المحقق)

٢. لأن الصداقة عندما تكون من طرفنا كمسلمين لابد ان تكون مبنية على أسس وقواعد إسلامية متينة، وحينئذ يكون عدو صديقنا هو عدونا، وليس المقصود هنا مجرد الروابط والعلاقات المبنية على المصالح والسياسة. (من المحقق)

منهج التعامل مع الأعداء في القرآن

من الخطأ أن يأمن الإنسان جانب العدو ويستهين به، كما أن من الخطأ أن يهاب الإنسان عدوّه. كل منهما خطأ.

فإن العدو يبقى يتربص بخصمه الدوائر، ولا يجد فرصة يستطيع بها أن يضر بخصمه إلا استغلها، ولا يزال يضمر لخصمه السوء والشر حتى يوقعه فيه، ونقرأ في كتاب الله سبحانه تحذيراً من الركون إلى الأعداء والاستهانة بهم والأمن من جانبهم:

١. يقـول تعالـى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[1].

لا تتخذوهم مواضع سرّكم وثقتكم، ولا تركنوا إليهم، فإنهم لا يقصّرون في أذاكم والإضرار بكم، ويودّون ويتمنون عنتكم وأذاكم.

وإن صدورهم لتغلي بالبغضاء حتى أنها تبدو على فلتات ألسنتهم، وما تخفي صدورهم من الحقد والبغضاء لكم أكثر.

وقوله تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ يؤكد نية العدو ومشاعره العدوانية تجاهنا، فإنهم يودون لنا المشقة والعنت والشدة، وأن نكون في همّ دائم من المشاكل الاجتماعية والأزمات الاقتصادية المستمرة.

٢. ويقـول تعالـى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾[2].

وهو تشخيص دقيق لأحقاد الأعـداء على المسلمين، فإن الآية تؤكد أن الحسنة التي تمسنا تسؤهم، فحتى لو كانت الحسنة تمسنا مسّاً خفيفاً فهي تغيظ

---

١. آل عمران: ١١٨.

٢. آل عمران: ١٢٠.

الكفار، وإذا أصابنا الشر فإنهم يفرحون به. والتعبير القرآني دقيق، فإن الشر إذا (مسّنا مسّاً خفيفاً) لا يشفي غليل صدورهم، وإنما يفرحهم إذا (أصابتنا) السيئة إصابة كاملة، عندئذٍ يفرحون ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ عندئذٍ تنتعش نفوسهم وتنشرح لها.

وشتان بين المس الخفيف للحسنة التي تغيظ الأعـداء، وبين الإصابة الشديدة للسيئة التي تثلج صدورهم، فهم لا يرضون الخير لنا والصلاح ولو في أدنى درجاته، ولا يكتفون بالشر والفساد إلا في أقصى درجاته وأفظعها.

٣. ويقـول تعالـى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾[1].

وهو إشارة إلى الحقد والكراهية الشديدة الكامنة في صدورهم، وكلمة (عَضُّوا) تكاد تكون حكاية حسية لصورة المنافق وهو يتقطع حسرات من شدة الغيظ.

هذا المنافق الذي يلقانا بالحب والمودة حتى نكاد نصدق هذه المشاعر، فنظن أنه الوجه الحقيقي له، ولكن القرآن ينقل لنا ما يدور في خلواتهم وحفلاتهم ومؤتمراتهم التي بلغ التآمر فيها حد العضّ على الأنامل من الغيظ.

٤. ويقـول تعالـى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾[2].

هذا جانب آخر من الحرب الشاملة التي يشنها الأعداء على المسلمين، وهو جانب التضييق الاقتصادي الذي يرهق الأمة، فالمحاصرة سياسة قديمة اتبعها المشركون ضد المسلمين كورقة ضغط للتنازل عن هويتهم ودينهم: ﴿حَتَّى

---

١. آل عمران: ١١٩.

٢. المنافقون: ٧.

﴿يَنْفَضُّوا﴾؛ أي حتى يضيقوا ذرعاً بالفقر والحاجة، فيؤدي ذلك إلى هجر الدين والتخلي عن رسول الله ﷺ.

٢. معرفة أساليب العدو ووسائله وجنده

مقدمة

وهذه مرحلة أساسية في هذا البحث، وقبل أن ندخل هذا البحث يجب أن ننتبه إلى أننا لا نقصد بالكافر والكفار هنا الأفراد والجماعات غير المؤمنة بالله تعالى وإن كان يصدق عليهم هذا العنوان.

ولكننا نقصد الكيانات السياسية الكافرة المحاربة للمسلمين[١]، كأمريكا وإسرائيل، وأمثالهما من الكيانات السياسية الاستكبارية التي تتصدى لمحاربة المسلمين، ونهب ثرواتهم، وتخريب ثقافتهم واقتصادهم وأمنهم.

أما الأفراد والجماعات غير المحاربة لنا من الكفّار، فهم كفار بالتأكيد، ولكننا لا نقصدهم في هذه المطالعة. وموقفهم من المسلمين يختلف حسب اختلاف الأفراد والجماعات من المحاربة[٢] إلى الحياد إلى التحالف والتعاون، ولا ينهانا الله تعالى عن برهم والإحسان إليهم، إن كانوا لا يشهرون السلاح في وجوهنا، ولا يتصدون لمحاربتنا وإخراجنا من ديارنا.

---

١. فإن الكافر غير المؤمن بالله أعم مطلقا من الكافر المحارب وغيره؛ أي أن الكافر ينقسم إلى فئتين:
الفئة الأولى: كافر حربي يعادي الإسلام ويتعدى عليه وعلى المسلمين، ويسعى إلى تضعيفهم والقضاء عليهم باي وسيلة كانت؛ سواء بالحرب العسكرية التقليدية أم بغيرها من الوسائل.
الفئة الثانية: كافر غير حربي وهو بخلافه، فهو لا يؤمن بالله تعالى لكنه لا يحارب المسلمين، وإنما اتخذ طريق السلم والمعاهدة معهم أو السكوتر والحياد.
ويقصد الشيخ ﷾ من كلامه هنا عن الكافر، الفئة الأولى، وهو الكافر المحارب أو الحربي. (من المحقق)

٢. من المفترض أن لا يكونوا محاربين؛ لأن كلام الشيخ ﷾ في الفئة الثانية وهي غير محاربة، لذلك لا ينهانا الله عن برّهم والإحسان إليهم، وبالتالي التعبير بـ (المحاربة) غير دقيق. نعم هذه الفئة إما مسالمة ومعاهِدة أو ساكتة وحيادية. (من المحقق)

يقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[1].

أساليب العدو

وبعد هذه المقدمة أقول:

يجب أن نعرف العدو ونشخصه، كذلك يجب أن نعرف وسائله وأساليبه التي يستخدمها في محاربتنا، وما لم نعرف أساليب العدو ووسائله لا نستطيع أن نواجهه وندفع أذاه وضره عن أنفسنا.

إن الحد الأدنى من ضرورات المواجهة مكافأة العدو في الوسائل والأساليب، وهو يتوقف على معرفة هذه الوسائل ... والحد الأعلى هو الاستعلاء عليه في الأساليب والوسائل، ومفاجأته بمبادرات ومفاجآت جديدة.

والقرآن الكريم يعطي اهتماماً كبيراً للتعريف بالأساليب والوسائل التي يستخدمها العدو في محاربتنا، وفيما يلي نشير إلى طائفة من هذه الأساليب من خلال كتاب الله تعالى:

الأسلوب الأول: الكيد والمكر والخداع

يقول تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[3].

---

١. الممتحنة: ٨.

٢. الطارق: ١٥.

٣. الأنفال: ٣٠.

ويقول تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

وهو أسلوب قديم توارثه الأبناء من الآباء في الكيد والمكر بالمسلمين والتضليل والتغرير والخداع. ومواجهة هذا الكيد والمكر يتطلب الكثير من الوعي والحذر واليقظة والانتباه. ويقرر القرآن بشكل جازم أن كل كيد ومكر من الكفار يعود إليهم بالضرورة، وأنهم لا يخدعون إلا أنفسهم.

الأسلوب الثاني: الصد عن سبيل الله

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾[2].

وفي آية أخرى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3].

وهذا أسلوب آخر للعدوان، وهو الصد عن سبيل الله ومنع الناس من الدخول في دينه، من خلال الاستخفاف بالدين والاستهزاء بالمؤمنين وإلهاء الشباب بالفساد الأخلاقي. ومن أساليب الصدّ عن سبيل الله: إلهاء الناس عن الرجوع الى الله وذكر الله، ودين الله، واللجوء إلى الله، وهو باب واسع من أبواب الإفساد ومحاربة الإسلام.

الأسلوب الثالث: الإشاعة

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾[4].

---

١. البقرة: ٩.

٢. آل عمران: ٩٩.

٣. التوبة: ٩.

٤. الأحزاب: ١٣.

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾[1].

من الأساليب التي اتبعها المنافقون في المدينة أسلوب الإشاعة والإرجاف وإذاعة الأكاذيب بين صفوف المسلمين، فقد أشاعوا قتل رسول الله ﷺ في معركة أحد؛ حيث أحدث الخبر أثرا بالغاً وسيئاً في نفوس المسلمين، برغم وسائل الإشاعة البدائية آنذاك، بينما تقوم الإشاعة اليوم بطرق علمية ودراسات نفسية واسعة، وهي جزء من الحرب النفسية، التي يتبعها الأعداء ضد الشعوب المستضعفة؛ لقتل الروح المعنوية للفرد والمجتمع.

يقول تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً﴾[2].

وهذا التهديد القرآني موجّه إلى الطائفة التي كانت تثير الإشاعات بين صفوف المسلمين، علماً أن مستوى الإشاعة كان بدائياً يعتمد على الجهد الشخصي، ولا تعادل جزءاً يسيراً من الإشاعة المعاصرة من جهة الكم والكيف، فكيف والإشاعة انتقلت من طابعها الشخصي البدائي إلى الحالة العلمية المتطورة المعقدة، وأصبحت تمتلك القدرة على الانتشار الواسع بسبب الآليات الحديثة؟!

الأسلوب الرابع: الإفساد والتخريب

يقول تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[3].

وهذا من أوضح الأساليب التي يتبعها الأعداء للنيل من المؤمنين، من خلال نشر الفساد والانحلال الأخلاقي وترويج القيم الفاسدة.

---

١. النساء: ٨٣.

٢. الأحزاب: ٦٠.

٣. المائدة: ٦٤.

الأسلوب الخامس: الإغفال والإرصاد

يقول تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾[1].

استغفال المسلمين أسلوب آخر حرص الأعداء على استعماله؛ لأن الوعي واليقظة يبطل مخططاتهم، ويفضح حقيقتهم، والحذر يؤدي إلى فشل وتطويق مخططاتهم. وهم يريدون أن نغفل عنهم من خلال إلهائنا بالمشاكل والفتن الداخلية، وأن نغفل عن أسلحتنا وإمكانياتنا المادية والفكرية لكي ينقضّوا علينا، ويميلوا ميلة واحدة، على حد التعبير القرآني.

يؤكد أمير المؤمنين عليه السلام على ضرورة اليقظة بقوله: (ضادّوا الغفلة باليقظة)[2]، وهي دعوة صريحة للانتباه من الغفلة التي ضاعفت الانتكاسات، وجعلت الأعداء يطمعون في إغوائنا ونهب خيراتنا عندما يجدوننا غافلين، لا نشعر بالتحديات الجسيمة من حولنا.

إن الأعداء يرصدوننا، ويتحينون فرصة حالات الغفلة في صفوفنا؛ لينقضّوا علينا، ويفاجئونا بالانقضاض المفاجئ، وهو قوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾.

معرفة أساليب ووسائل الشيطان

وإلى جانب ذلك؛ للقرآن اهتمام كبير بفضح الأساليب والوسائل التي يستخدمها الشيطان لتضليل الناس... وغاية القرآن من هذا الكشف والفضح هو تنبيه الناس وتعريفهم بالوسائل والأساليب التي يستخدمها عدونا اللئيم اللعين (الشيطان)؛ ليتمكنوا من مواجهته ومقابلته بكفاءة وقدرة.

---

١. النساء: ١٠٢.

٢. عبد الواحد الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، الحكمة: ٣١، ص٤٢٧.

أساليب الشيطان

الأسلوب الأول: الخطوات

من هذه الأساليب، أسلوب (الخطوات) التي يتبعها الشيطان في تضليل الناس، فلا يدعو الشيطان الناس إلى عبادته مرة واحدة، وإنما يستدرجهم الى عبادته وطاعته (خطوة خطوة) ... فإذا وقعوا في شركه استحوذ عليهم.

ويحذرنا الله تعالى من اتباع خطوات الشيطان، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[2].

الأسلوب الثاني: حصار وتطويق الضحية

ومن أساليب الشيطان، أنه يحاصر ضحيته حتى يطوّقها، ويسد عليها سبل الفرار، فإذا حاصرها ضيق عليها الحصار بالتدريج، حتى تكون الضحية في يده وتحت أمره بشكل كامل، لا تملك طريقا للفرار والخروج من الحصار.

ويوضح القرآن هذا الأسلوب من أساليب الشيطان، يقول تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[3].

والشيطان يقعد على طريق الإنسان من كل جانب، ليسد عليه الطريق إلى الله.

---

١. النور: ٢١.

٢. البقرة: ٢٠٨.

٣. الأعراف: ١٦ - ١٧.

الأسلوب الثالث: الرصد والمتابعة

ومن أساليب الشيطان (الرصد)، أنّه يرصد ضحيته من حيث يراها، ولا تراه، ومهمة الراصد استهداف الضحية حينما تنكشف له في مرماه فيرميها.

وينكشف الإنسان للشيطان، متجرداً من الدفاع والمقاومة في ساعات الغفلة، فيصيبه الشيطان، يقول تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[1].

الأسلوب الرابع: الإغراء والتهييج

ومن أساليب الشيطان الإغراء والتحريك، يقول تعالى: ﴿أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[2].

والأز - كما يقول ابن عباس - (الإغراء)[3]، والأزّ التحريك والتهييج الشديد، و لذلك يقال لغليان القدر (الأزيز)[4]، والشيطان يهيّج ضحيته، ويحركها، ويثيرها إثارة شديدة، في الغضب والشهوة، حتى يستحوذ عليها.

الأسلوب الخامس: الوعود الكاذبة والخديعة

ومن أساليب الشيطان، أنّه يعد ضحيته ويمنّيها ويخدعها بالوعود والأُمنيات الكاذبة، فيدفعها إلى السقوط، فإذا سقطت الضحية لا تجد من وعود الشيطان وأمانيه شيئاً، يقول تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾[5].

ورد عن الصدوق في المجالس عن الصادق عليه السلام: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ

---

١. الأعراف: ٢٧.

٢. مريم: ٨٣.

٣. الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٦، ٨٢٠.

٤. لسان العرب، مادة: أزز.

٥. النساء: ١٢٠.

إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾[1].

(قال إبليس) فمن لها؟ فقال الوسواس الخناس: أنا لها قال: بماذا؟ قال: أعدهم وأُمنّيهم، فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار، فقال: أنت لها[2].

الأسلوب السادس: الاستفزاز

ومن أساليب الشيطان الاستفزاز، وهو الاستخفاف. إذا استخف الشيطان ضحيته، هان عليه أن يحرّكه ويوجهه كيفما يريد، فإن الذي يضبط الإنسان عن الغي والتسلط، هو عقله ووعيه وضميره وخبرته وحكمته، فإذا جرده الشيطان من ذلك واستخفّه، سهل عليه أمره، وتمكن منه، عندئذ يثيره ويحركه، ويهيجه كما يحب، ويستحوذ عليه كما يريد.

يقول تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[3].

الأسلوب السابع: التسويل والإملاء

ومن أساليب الشيطان التسويل والإملاء، يقول تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ

---

١. آل عمران: ١٣٥.

٢. الصدوق، الأمالي، المجلس الحادي والسبعون، ص٤٦٥، ح٥. وإليك نصّ الحديث: عَنِ الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ- {وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ}، صَعِدَ إِبْلِيسُ جَبَلًا بِمَكَّةَ يُقَالُ لَهُ (ثَوْرٌ)، فَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ بِعَفَارِيتِهِ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالُوا يَا سَيِّدَنَا لِمَ دَعَوْتَنَا؟ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَمَنْ لَهَا؟ فَقَامَ عِفْرِيتٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ، فَقَالَ: أَنَا لَهَا بِكَذَا وَكَذَا، قَالَ: لَسْتَ لَهَا. فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَسْتَ لَهَا، فَقَالَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ: أَنَا لَهَا، قَالَ: بِمَاذَا؟ قَالَ: أَعِدُهُمْ وَأُمَنِّيهِمْ حَتَّى يُوَاقِعُوا الْخَطِيئَةَ. فَإِذَا وَاقَعُوا الْخَطِيئَةَ أَنْسَيْتُهُمُ الِاسْتِغْفَارَ، فَقَالَ: أَنْتَ لَهَا. فَوَكَّلَهُ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. (من المحقق)

٣. الإسراء: ٦٤.

وَ أَمْلىٰ لَهُمْ﴾[1].

و(التسويل): التسهيل، و(الإملاء): الامداد في الآمال والأماني .

ومعنى الآية الكريمة: أن الشيطان يسهّل لهم اقتراف الذنوب ومعصية الله عز وجل، ويمدُّ في آمالهم وأمانيهم، ويطوّل في نفوسهم الآمال، حتى ينسوا الموت، فتستغرقهم عندئذ الدنيا، وتصرفهم عن الآخرة وما بعد الموت .

الأسلوب الثامن: النّزغ

ومن أساليب الشيطان (النزغ). يقول تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطٰانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ﴾[2].

والنزغ الإفساد، ومنه: (نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي)[3].

وإذا أفسد الشيطان الإنسان، أمكنه أن يستحوذ عليه وتمكّن منه.

الأسلوب التاسع: تزيين الفِتن

ومن أساليب الشيطان التزيين، يزيّن الفِتن للأهواء، كما يهيّج الأهواء تجاه الفِتن. والتزيين من وسائل الشيطان الخبيثة والغريبة، فقد يكون الحلال والحرام من سنخ واحد، فيزين الشيطان الحرام لضحيته، دون الحلال، كما يهيج الشيطان أهواء الإنسان وشهواته تجاه الفِتن بشكل قوي ومؤثر.

يقول تعالى عن التزيين: ﴿وَقَيَّضْنٰا لَهُمْ قُرَنٰاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمٰا خَلْفَهُمْ﴾[4].

---

١. محمد: ٢٥.

٢. الأعراف: ٢٠٠، وفصلت: ٣٦.

٣. لسان العرب، مادة: نزغ.

٤. فصلت: ٢٥.

الأسلوب العاشر: الوسوسة

ومن أساليب الشيطان (الوسوسة) و(الخنوس)، يقول تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[1].

و(الوسوسة) هي: أن ينفذ الشيطان إلى نفس الإنسان من المسالك والدروب الخفية، بخفاء وتكتم، بحيث لا يثير انتباه الإنسان وحذره، ويختفي داخل نفس الإنسان، فيثير في نفسه الأهواء من دون أن ينتبه إلى موقع الشيطان من نفسه.

يقول تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾[2].

و(الخنوس) هو: رجوع الشيطان وفراره إذا انتبه الإنسان إلى موقع الشيطان في نفسه، لئلا ينتبه الإنسان إلى الخطر، ويثير في نفسه الحذر.

فالشيطان يدخل في نفس الإنسان بخفاء وتكتم، لا يثير انتباهه وحذره، فإذا انتبه الإنسان إلى موقع الشيطان في نفسه قفل الشيطان راجعا وفر، فإذا غفل الإنسان عاد إلى موقعه الأول من النفس، وهذا هو الخنوس.

وقد روي عن رسول الله ﷺ: (إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَنَسَ، وَإِنْ نَسِيَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ)[3].

الأسلوب الحادي عشر: الهَمْز

ومن أساليب الشيطان، (الهمز)، وهو الطعن السريع الذي يتم بخفة وسرعة، وفي كتاب الله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ

---

١. الناس.

٢. الأعراف: ٢٠.

٣. محمد باقر المجلسي، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ج٩، ص٣٩٢.

أَنْ يَحْضُرُونِ﴾[1].

وللشيطان، بالإضافة إلى هذه الأساليب، وسائل كثيرة يتوسل بها إلى إغواء الناس وتضليلهم، يقوى بها عليهم، يقول تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[2].

وفي دعاء نهار شهر رمضان عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام ذِكْر لعدد من وسائل الشيطان وأساليبه وجُنده:

(وَأَعِذْنِي فِيهِ مِنَ اَلشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَهَمْزِهِ وَلَمْزِهِ وَنَفْثِهِ وَنَفْخِهِ وَوَسْوَسَتِهِ وَتَثْبِيطِهِ وَبَطْشِهِ وَكَيْدِهِ وَمَكْرِهِ وَحَبَائِلِهِ وَخُدَعِهِ وَأَمَانِيِّهِ وَغُرُورِهِ وَفِتْنَتِهِ وَشَرِكِهِ وَأَحْزَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَأَشْيَاعِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَشُرَكَائِهِ وَجَمِيعِ مَكَايِدِه)[3].

---

١. المؤمنون: ٩٧ - ٩٨.

٢. الإسراء: ٦٤.

٣. الطوسي، مصباح المتهجد، ج٢، ص٢١١.

٣. الموقف من العدو

النقطة الأخيرة في هذا الفصل هي تحديد الموقف من العدو.

بعد أن يشخص القرآن هوية العدو، ويكشف أساليبه، يحدد لنا الموقف منه.

ويحرص القرآن على بيان الموقف المعبر عن حالة الرفض النفسي، والمواجهة العملية، والتصدي له، والمقابلة لأساليب العدو بالوسائل المكافئة.

وهذه أمثلة قرآنية تبين الموقف الصحيح من العدو:

أ. الردع عن موالاة العدو

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾[١].

هذه الآية الكريمة تبين أن أعداء الله تعالى هم أعداء المؤمنين ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾، وهي معادلة واضحة، ومن متطلبات التوحيد. فمن كان عدواً لله فهو لا محالة عدو للمؤمنين. ولا يعزل المؤمنون أنفسهم عن ساحة المواجهة القائمة بين أعداء الله وبين أنبياء الله ورسله، كما كان يفعل بنو إسرائيل؛ حيث قالوا لنبيهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[٢]، فعزلوا أنفسهم عن ساحة المواجهة والمعركة.

وفي قوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ إشارة إلى وجوب نفي المودّة من قلوبنا لهم؛ لأنها من الموالاة والمودّة المحرمة.

والنقطة الأخرى الهامة التي تبيّنها الآية هي بيان دليل العداء وسببه ‹وَقَدْ

---

١. الممتحنة: ١.

٢. المائدة: ٢٤.

كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾؛ أي أن الكفر بما جاءهم رسول الله ﷺ من الحق من عند الله هو دليل عدائهم لله وللمؤمنين، إن الأيمان والكفر بما جاء رسول الله ﷺ من الحق من جانب الله يحدد تماماً وبشكل دقيق السلام والعداء، وما إذا كان الناس يقفون منا موقف المسالم والقبول أو موقف الرفض والعداء.

إن الكفر والإيمان دليل الحرب والسلام ودليل العداء والمودّة.

ب. العداء

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[1].

إن الشيطان عدو للإنسان، وهذه حقيقة واضحة جاء بها الأنبياء جميعا من عند الله، ولكن ماذا ينبغي أن نعمل تجاه هذه الحقيقة القديمة؟ يقول تعالى: ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

أي نتعامل معه معاملة العدو، ولا نركن إليه، ولا ننقاد له، ونحذر منه، ونواجه كيده ومكره بالوعي والقوة والحذر. والشطر الثاني: ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ يتبع الشطر الأول: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

جـ. تجنب المودة القلبية

يقول تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾[2].

وهي دعوة صريحة إلى تفريغ القلوب من التعلق والإعجاب بالكافرين، لأنهم لا يحبوننا ولا يريدون لنا الخير، ولن يحبونا، مهما حاولنا استرضاءهم، فلا يجوز أن نعطيهم المودة من قلوبنا؛ فإن المودة جزء من الولاء. ولا يمنح المؤمنون

---

١. فاطر: ٦.

٢. آل عمران: ١١٩.

ولاءهم إلا لله ورسوله وأوليائه والمؤمنين.

د. الحذر

يقول تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[1].

الحذر من أهم المواقف التي يقررها القرآن تجاه العدو، وهو مجموعة من الإجراءات الاحترازية التي نأمن بها كيده وسطوته، من خلال وعي دقيق لخطوات الشيطان والاحتراز عن الغفلة تجاه وسائل الشيطان وأساليبه.

ومن ينام عن عدوه تنبّهه المصائب التي تنزل به من ناحية العدو. عن أمير المؤمنين عليه السلام: (من نام عن عدوه نبهته المكائد)[2]، وهو يتطلب اليقظة والحذر. إن من الخطأ أن يستهين الإنسان بعدوه فينشغل عنه، كما أن من الخطأ أن يستعظم الإنسان عدوّه ويهوّل أمره.

وعنه عليه السلام أيضا: (لا تستصغرن عدواً وإن ضَعُف)[3].

هـ. رفض طاعة العدو

يقول تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[4].

---

١. المنافقون: ٤.

٢. عبد الواحد الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، الحكمة: ١٠١٧، ص٦٣٠. مع اختلاف في اللفظ: (من نام عن عدوّه انتهته المكائد). وفي تصنيف غرر الحكم: (مَنْ نَامَ عَنْ عَدُوِّهِ أَنْبَهَتْهُ [نَبَّهَتْهُ] الْمَكَايِدِ). عبد الواحد الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، الحكمة: ٧٦٨٧، ص٣٣٤. وفي عيون الحكم والمواعظ لليثي: (مَنْ نَامَ عَنْ عَدُوِّهِ أَنْبَهَتْهُ الْمَكَايِدِ). علي الليثي، عيون الحكم والمواعظ، الحكمة: ٧٦٦٨، ص٤٤١. (من المحقق)

٣. عبد الواحد الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، الحكمة: ٦٧، ص٧٤٦.

٤. الكهف: ٢٨.

الموقف الآخر من العدو هو حرمة طاعته والخضوع لأوامره ونواهيه. إن هؤلاء الكفار قد حجبهم الله عن الهدى، وأغفل قلوبهم عن ذكره؛ بسبب سيئاتهم وذنوبهم وإعراضهم عن الله، فعاقبهم الله تعالى بالإغفال والحجب والعمى والصمم.

فلا يجوز اتباع هؤلاء الذين أغفل الله قلوبهم وحجبهم عن ذكره، إنهم لا يزيدون الناس إلا شقاءً وبعدا عن الله، إنما الطاعة لله ولرسوله ولأوليائه الذين أمر الله تعالى بطاعتهم... وأيّ طاعة أخرى في غير هذه الطاعة فهو من الشرك في الطاعة، والشرك في الطاعة يخرج صاحبه عن دائرة التوحيد.

و. المقاطعة الكاملة

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1].

إنها المقاطعة الكاملة، لا هوادة فيها ولا تراجع عنها، ولا مهادنة فيها للكافرين، مقاطعة في الدين والمنهج والحياة والأخلاق والثقافة والمعاشرة والعبادة والاقتصاد والنفوذ.

إن هذه السورة تلغي كل ألوان اللقاء بالكافرين، وتقطع كل جسور الولاء بيننا وبينهم.

---

١. الكافرون.

الفصل الثاني: من هم أعداؤنا؟ ما هي أساليبهم؟ ما هو الموقف منهم؟

من هم أعداؤنا؟ وما هي أساليبهم؟ وما هو الموقف منهم؟

هذه ثلاثة أسئلة خطيرة، حساسة في علاقتنا اليوم بأعدائنا، ولنبدأ بالإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة تباعاً.

أولاً: من هم أعداؤنا؟

من السذاجة أن لا يعرف الإنسان عدوه، أو لا يعرف أساليبه ووسائله، ولا يعرف كيده ومكره وشعاراته، وما يخفى تحت هذا الشعار من مكر وكيد.... فقد دخل الاحتلال بلادنا للنهب وإذلال الأمة وتخريب ثقافتها وعمرانها تحت شعار وعنوان (الاستثمار)، وهو عنوان يعكس العمران والإصلاح والبناء؛ بخلاف ما يعمله وينويه المستعمر الكافر، تدليساً في العناوين...

وما أكثر المآسي التي ارتكبها الغزاة المحتلون في العالم الإسلامي تحت هذا العنوان!! وأمتنا بحاجة إلى وعي وإدراك سياسي دقيق لاختراق هذه الشعارات وكشف الزيف الذي تستبطنه هذه الشعارات.

واليوم تدخل أمريكا العالم الإسلامـي تحت شعار جديد تمخضت عنه الدراسات الاستراتيجية في أمريكا في التعامل مع العالم الإسلامي... وهذا الشعار الجديد هو (الديمقراطية) و(حقوق الإنسان)، تحت هذا الشعار تخفي أمريكا كل نواياها وأهدافها، وكل أعمال النهب والسطو الواسعة على العالم الإسلامي، وتعمل على فرض قيمومتها على العالم الإسلامي.

تدخل بالمدرعات والمقاتلات الجوية العالمَ الإسلامي، وتمارس الاحتلال على المسلمين علانيةً وبشكل سافر، وتمارس النهب والسطو على ثرواتهم... ويعنونون ذلك بعنوان الديمقراطية وحقوق الإنسان ومحاربة الإرهاب.

وخير مثال على ما نقول (العراق وأفغانستان)، والحبل على الجرار[1]، مادام المسلمون في غفلة سادرين.

ومسؤوليتنا الإلهية بين يدي الله تعالى، أن نكشف الوجه الحقيقي لأمريكا وسائر دول الاستكبار الغربي والشرقي، ونسقط عنها الأقنعة الشعارية والإعلامية التي تتستر بها، ونكشفها بوجهها الحقيقي لأمتنا وشعوبنا، ونسمي الأشياء بأسمائها، ونقول ونعلن أن أمريكا لم تأت إلى بلادنا محررة بل محتلة، وأنها هي السبب في كل مصائبنا ومشاكلنا...

وأن العالم الإسلامي لا يحتاج الى قيّم يمارس القيمومة عليه من وراء البحار... وأن الاستكبار العالمي يعمل لتمكين قبضته من العالم الإسلامي، ونهب ثرواته، وإذلال شعوبه واستضعافهم، وفرض نفوذه السياسي والاقتصادي عليهم تحت هذه العناوين الفارغة المفضوحة.

وأن مشاكل العالم الإسلامـي، التي سببها أمثال: حزب البعث، وحكم صدام في العراق، وعصابة الطالبان في أفغانستان، وعصابات الإرهاب والفتن الطائفية، من إفرازات ونتائج الحضور الأمريكي في المنطقة.

ثانياً: ما هي الأساليب التي يستخدمها العدو؟

إن الأساليب التي يستخدمها العدو، هي من حيث الجوهر والروح نفس الأساليب التي كان يستخدمها الطغاة والجبابرة من قبل؛ من الخداع والمكر والكيد، ولكن بآليات متطورة وإمكانات أعظم.

إن العدو هو العدو، وما يستخدمه من مكر وكيد هو ما كان يستخدمه من قبل، لا فرق، إلا انه تمكن اليوم من أن يستخدم العلم والتقنية الحديثة لتطوير

---

١. واليوم سوريا ولبنان واليمن و...(من المحقق)

آلياته وإمكانياته.

ولا بد لنا، في هذه المواجهة المصيرية بيننا وبين أعدائنا، أن نعرف جيداً أساليبه وآليات عمله، ومن دون ذلك لن نتمكن من مقارعته ومواجهته، ولن نتمكن من أن نحصن أنفسنا ومجتمعنا منه.

ثالثاً: ما هو الموقف من الأعداء؟

بعد تشخيص العدو ومعرفة أساليبه، لابد من معرفة الموقف الصحيح الذي ينبغي أن نتخذه من العدو؛ لكي نحمي أنفسنا والأجيال القادمة من خطر العدو وأساليبه.

ويمكن إيجاز الموقف من العدو في نقاط أهمها:

١. عدم التهيّب من العدو

يجب أن لا نتهيب من العدو، ولا تصيبنا الهزيمة النفسية منه، فإن أعداءنا لا يحرصون على شيء كما يحرصون على ذلك؛ من خلال وسائل الإعلام التي يوظفونها لتضفي عليهم حالة من الهيمنة والقوة المطلقة التي لا تقهر. هذه الحملة الإعلامية في تضخيم حجم العدو جزء من الحرب النفسية التي غايتها قتل الروح المعنوية لدى المسلمين، حتى يكبر الكافرون في أنفسهم، وبمقدار ذلك يفقدون الثقة بأنفسهم وقدراتهم العقلية والنفسية والعلمية والعسكرية.

في هذه المواجهة ينبغي أن نحافظ على موقع الاستعلاء الذي وصفنا الله به: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[1].

٢. عدم الاستهانة بالعدو

١. آل عمران: ١٣٩.

إن الاحتراز من التهيّب من العدو يجب أن لا يؤدي الى حالة الاستهانة بالعدو، فإن الاستهانة بالعدو تؤدي إلى حالة الغفلة والاسترخاء، وهي حالة ضارة مهلكة، ومن مظاهر الاستهانة بالعدو الجهل بأسباب القوة عنده وعدم تقديرها حق قدرها.

كما حدث مثل ذلك للبلاد العربية في نكسة حزيران، فقد كان من أسباب هذه النكسة الاستهانة بقدرات العدو وإمكانياته، وعدم وجود دراسة دقيقة لإمكانياته العسكرية، وعدم الإعداد الكافي لمعركة من هذا النوع، والغرور والعُجب الكاذب بالذات، وكانت النتيجة الهزيمة العسكرية والنفسية المُرّة التي أصابت الانظمة العربية في هذا التاريخ.

٣. تطوير إمكانياتنا في مقاومة العدو

إن العدو اليوم يمتلك إمكانيات وآليات متطورة لمواجهة المسلمين، وعلينا أن نعمل لتطوير إمكانياتنا وقدراتنا العسكرية والاقتصادية والعلمية في هذه المواجهة بالاستفادة من معطيات العلم في المجالات الإعلامية والعسكرية والاقتصادية، وبذل الجهد في تحقيق الاكتفاء الذاتي الاقتصادي.

يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1].

ولا سبيل لنا للخروج من قبضة النفوذ السياسي والاقتصادي للعدو إلا بتحقيق الاكتفاء الذاتي العام في جميع المجالات العلمية والاقتصادية، ولا سبيل لنا لتحرير بلادنا وأسواقنا وأمتنا من سلطان العدو ونفوذه إلا بتحقيق الكفاءات العلمية، التي تحقق بدورها الاكتفاء الاقتصادي، وهو في الغالب السبيل إلى تحقيق الاستقلال السياسي للبلاد.

---

١. الأنفال: ٦٠.

٤. حرمة الركون الى العدو

ومعنى الركون: الاستسلام، والسكون، والاطمئنان، والانفتاح، والثقة بالعدو. يقول تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[1].

وللركون مصاديق كثيرة تجاه العدو؛ منها: الركون الثقافي، وهو الانفتاح الثقافي غير المشروط تجاه الثقافة الغربية والشرقية، والتعامل معها بإيجابية.

ومنها الركون الاقتصادي، وهو الانفتاح غير المشروط تجاه زحف العجلة الاقتصادية لدول الاستكبار الاقتصادي في بلادنا، وقبول نفوذ هذه الدول الاقتصادي في أسواقنا.

٥. التحصين تجاه الغزو الثقافي الغربي

نواجه اليوم غزوا ثقافياً واسعاً قادماً من الغرب. ويتقدم هذا الغزو باتجاه العالم الإسلامي بآليات متطورة ومتقدمة ويدخل من دون صعوبة تذكر عقر دورنا، ولا نستطيع نحن اليوم أن نسيّج بيوتنا وعوائلنا وأبناءنا وبناتنا تجاه هذا الغزو الثقافي القادم إلينا، إلّا أن نحصن أبناءنا وبناتنا وعوائلنا بالتقوى والتثقيف، فإن التقوى والثقافة القرآنية حصون حصينة منيعة، تمنع أهلها من أمثال هذه الفتن والأهواء، وتمنحهم درجة عالية من المقاومة ضد هذا الغزو وتحصّنهم تجاهه.

٦. الاستعانة بالله

وأخيراً، وأولاً الاستعانة بالله تعالى، والثقة به، والاعتزاز به، والاعتماد عليه، فإن ذكر الله تعالى يمنح المؤمنين قوة لا تضاهيها قوة في ساحة المواجهة والمقارعة، وتبعث في نفوسهم الطمأنينة وتهبهم المقاومة والصمود

---

١. هود: ١١٣.

والاستعلاء.

ونحن اليوم في مواجهة شرسة مع أعداء الإسلام، ونحن أحوج ما نكون إلى مثل هذه الحالة من الاتّكال على الله، والثقة والاستمداد من حوله وقوته، والاطمئنان إلى تأييده ونصره لعباده المؤمنين في هذه المواجهة المصيرية.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

١. الأنفال: ٤٥.

الفصل الثالث: تشخيص علاقة الكفار بالمسلمين

مقدمة

قبل أن ندخل هذا البحث يجب أن نذكّر مرة أخرى بأننا نقصد بالكفار في هذا الفصل الكيانات الكافرة السياسية الاستكبارية، ونعتقد أن الآيات التي تأتي في هذا الفصل تشير إلى هذه الحالة.

وأما أفراد الكفار، فيختلفون من حال إلى حال، ومن شخص إلى شخص، فمنهم العدو الذي لا يريد بالمسلمين غير الأذى والإضرار والشر، ومنهم دون ذلك. ومنهم المحايد الذي لا يميل إلى هذا ولا ذاك، ومنهم من يعطف على المسلمين ويرقّ لهم.

أما الكيانات السياسية الاستكبارية الكافرة، فلا يقرّ لها قرار حتى يتخلى المسلمون جميعا عن دينهم.

والآيات التي نشير إليها فيما يلي من هذا الفصل في علاقة الكفار بالمسلمين تشير إلى هذه الطائفة.

الآيات المشخصة لعلاقة الكفار بالمسلمين

وإليك طائفة من آيات القرآن الكريم في تشخيص علاقة الكفار بالمسلمين:

١. الكفار مصدر الفتنة

يقرر القرآن أنهم مصدر الفتنة في العالم، فهم يفتنون المسلمين عن دينهم بالإرهاب، والاضطهاد، والإغراء، والتطميع، والترغيب، والمطاردة، وقطع الأرزاق، والإفساد، والتخريب، والقتل... ونحن قد واجهنا ولا نزال نواجه طائفة واسعة من هذه الوسائل التي تفتن المسلمين عن دينهم في حياتنا المعاصرة، بوسائل

مشابهة للوسائل التي كان يستخدمها الأعداء في افتتان المسلمين طيلة عصور التأريخ الإسلامي، وفي الصدر الأول من تاريخ الإسلام، وفي مواجهة الأنبياء عليهم السلام.

والله تعالى يقول إنهم مصدر الفتنة في حياة المسلمين، ولا تنتهي هذه الفتنة إلا بنهاية الكيانات الكافرة السياسية الاستكبارية على وجه الأرض، يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[1].

فما دامت هذه الكيانات قائمة، فإنها تخطط وتسعى وتعمل للقضاء على الإسلام وافتتان المسلمين عن دينهم.

ولا عجب أن يكون القتل جزاءً لهذه الفتنة وعلاجاً لها، فان الفتنة أشد من القتل على المسلمين ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[2]، والقتل رادع للفتنة.

٢. يردون المسلمين عن دينهم

إنهم لا يقرّ لهم قرار حتى يردوا المسلمين عن دينهم، وهذه هي الغاية الأساسية من وراء حرب الكفار، إنهم يعلمون جيداً أن هذا الدين يحمي أتباعه من بأس الكفار وكيدهم ومكرهم، ما داموا يتمسكون به. ولذلك فهم يحرصون على رد المسلمين عن دينهم ما وسعهم ذلك، وتاريخ الصراع بين الإسلام والكفر خير شاهد على هذه الحقيقة.

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[3].

والارتداد مصدر كل هزيمة وشر في هذه الأمة، وللارتداد مستويات، وكل مستوى منها يستتبع حدّاً من الهزيمة والعجز والضعف، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ

---

١. البقرة: ١٩٣.

٢. البقرة: ١٩١.

٣. البقرة: ٢١٧.

مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[1].

٣. يقاتلون المسلمين كافة

يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾[2].

إنهم يتحزبون في حربهم ضد المسلمين، وبالرغم من وجود الخلافات الكثيرة الاقتصادية والسياسية فيما بينهم، وبالرغم من التسابق والصراع الاقتصادي والسياسي والعسكري بينهم، فإنهم يتفقون على محاربة المسلمين، والقضاء على الإسلام، ولذلك يبادرون إلى تجميد الخلافات القائمة ويتجاوزونها ويتناسونها ويجمدونها؛ ليتفرغوا لمحاربة المسلمين.

إن التجارب المعاصرة دلتنا على أن الاستكبار العالمي الكافر جبهة واحدة تجاه المسلمين، وكلما شعروا بعودة الإسلام إلى التصدي للحياة السياسية... اجتمع أئمة الكفر على مواجهة الحالة الإسلامية، مهما كان الثمن...

وهـذه الجبهة الواحدة في مواجهة الإسلام والمسلمين تتطلب من المسلمين في المقابل أن يوحدوا صفهم في مواجهة الكفر ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[3].

٤. يتخذون دين المسلمين هزواً ولعباً

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[4].

---

١. البقرة: ٢١٧.

٢. التوبة: ٣٦.

٣. الصف: ٤.

٤. المائدة: ٥٧.

الاستهزاء والسخرية بالدين وشعائره، وبالأنبياء وأصحابهم والمؤمنين بهم، حالة معروفة وقديمة، وهي الآن قائمة في عصرنا... الغاية منها تسقيط الدين والأنبياء، ودعاتهم، وشعائر الدين، والقيم وأصولها، وهي آلية ضعيفة لم تقاوم في عصر من العصور قوة الدين وزخمه واستقامة المؤمنين به، والبصائر التي أودعها الله فيه... ورغم أنها لم تثبت جدارة في مقاومة الدين ودوره ونفوذه في قلوب الجمهور وعقولهم، فلا تزال هذه الآلية القديمة توظف اليوم بأساليب حديثة للحد من نفوذ الدين.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾[1].

٥. يقاتلون في سبيل الطاغوت، وهو وليهم

الصراع بين دين الله والطاغوت صراع قديم، وفي مقابل كل نبي وإمام وداع يدعو إلى سبيل الله طاغوت يصد عن سبيل الله، والناس في هذا الصراع شطران: شطر يقاتل الطاغوت في سبيل الله، وشطر آخر يقاتل المسلمين في سبيل الطاغوت، وهؤلاء هم جند الطاغوت وحزبه و﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2].

٦. لا يحبون الخير للمسلمين

يقول تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[3].

---

١. المطففين: ٢٩ - ٣٠.

٢. البقرة: ٢٥٧.

٣. البقرة: ١٠٥.

إن الكافريـن أعداء لنا، ولا يمكن أن يتمنوا الخير لنا؛ بل يتمنون الشر والفساد لنا، ويخططون ويتحالفون في سبيل هذه الغاية ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾[1].

وإذا كانوا لا يتمنون الخير النازل إلينا من عند الله تعالى، فهل يمكن أن يحمل الكافرون الخير إلينا بأيديهم؟! إن الأعداء يتمنون أن يمنعوا قطر السماء وضوء الشمس عن العالم الإسلامي؛ لكي يهلكوا عن آخرهم، ومن كانت هذه مشاعره لا يمكن أن يحمل الخير لنا.

٧. يصدون عن سبيل الله

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾[2].

إنهم يبذلون وينفقون للصد عن سبيل الله - كما يبذل المؤمنون وينفقون في سبيل الله - يبذلون الأموال الطائلة لإشاعة الفساد والانـحلال والابتذال والسقوط الأخلاقي، ويعتزون بذلك: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً﴾[3].

تصرف هذه الأموال لتكون عقبة في طريق الهداية، ولكي يصد بها عن سبيل الله، هؤلاء الكفار يقعدون للناس على كل سبيل ليصدوهم عن الله، يحاكون بذلك الشيطان عندما وعد بالقعود على الصراط: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[4].

٨. ينقضون عهودهم مرة بعد أخرى

---

١. آل عمران: ١٢٠.
٢. الأنفال: ٣٦.
٣. البلد: ٦.
٤. الأعراف: ١٦.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾[1].

إن نقض العهود بشكل دائم ومستمر، هو ما يميز علاقة الكافرين بالمسلمين، يفعلون ذلك بدون تردد، إنهم يبرمون المواثيق رغبة بالسلام، عندما يضطرون إليه، وعند شعورهم بالضعف، وعندما يكون عدوهم أقوى منهم، وما أن يلتقطوا أنفاسهم ويستجمعوا قواهم حتى ينقضوا العهود والمواثيق، ولن تكون العهود عندهم أكثر من حبر على ورق وكأنّ شيئاً لم يكن، وكيف يتحرج من نقض العهد مع الناس من لا يتحرج من نقض العهد الذي واثق به الله تعالى، فهم كلما عاهدوا الله تعالى على التوبة والإنابة في لحظات الضيق والضر، نقضوا عهدهم عندما ينكشف الضر عنهم وعادوا إلى عتوهم من جديد ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[2].

العلاقة الايجابية مع الكفار

مرة أخرى أكرر أن هذا الحديث عن صفات الكفار وخصالهم ومواقفهم النفسية والعملية لا يعمّ الكفار عموماً، وإنما يختص بالكيانات السياسية الاستكبارية التي تحارب الإسلام والمسلمين، وتتصدى للصدّ عن سبيل الله... وأما الكفار الذين لم يتصدوا لمحاربة المسلمين، ولم يتورطوا في العداء، ولم يشتركوا في الحرب ضد المسلمين، ولم يخرجوا المسلمين من ديارهم، ولم ينصبوا لهم الحرب والعداء، فلهم حكم خاص، يحدّده القرآن بقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[3].

---

١. الأنفال: ٥٥ - ٥٦.

٢. البقرة: ٤٠.

٣. الممتحنة: ٨.

هؤلاء لا ينهانا الله عن مساعدتهم إذا احتاجوا إلى دعم ومساعدة، عندما تمسّهم نكبة أو بأساء أو ضراء.

ولا ينهانا الله عن برّهم ومواصلتهم والتعايش معهم، لكن دون أن يبلغ ذلك حد الولاء، فإن الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين خاصة.

ولا ينهانا الله تعالى عن الانفتاح الحضاري والتفاهم والتعارف مع الشعوب والأمم التي لا تنضم إلى جبهة أعداء الإسلام.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

والتعارف هو التفاهم والتعامل الحضاري والعملي والاقتصادي وغيره، وهو الغاية من اختلاف خلق الشعوب والقبائل.

١. الحجرات: ١٣.

الفصل الرابع: علاقة المسلمين بالكفار

نتحدث في هذا الفصل عن علاقة المسلمين بالكفار بعد حديثنا السابق عن علاقة الكفار بالمسلمين.

يتناول القرآن هذه العلاقة وحدودها وعناصرها وجذورها النفسية بكثير من التفصيل والتركيز والإيضاح، نظراً لأهمية هذه النقطة في علاقة المسلمين بمن حولهم في العالم.

نتحدث عن العلاقة بالكفار ضمن عنوانين: (العلاقة النفسية) و(العلاقة الاجتماعية).

أولا: العلاقة النفسية بالكفار

١. الاستعلاء على الكفار

والنقطة الأولى التي تثير انتباهنا في علاقة المسلمين بالكفار في القرآن، تأكيد القرآن على حالة الاستعلاء للمسلمين في علاقتهم بهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

ومن العجب أن هذه الآية التي تصف موقع المسلمين من الكفار بـ (الاستعلاء)، نزلت بعد نكسة أحد، ولم تنزل بعد نشوة المسلمين في معركة بدر.

إن النكسة مهما كانت مرة لم تغير من واقع الاستعلاء في العلاقة بالكفار، إذا كان المسلمون يؤمنون بالله - حق الإيمان - ويؤدون استحقاقات الإيمان من العمل الصالح.

---

١. آل عمران: ١٣٩.

إن الاستعلاء في علاقة المسلمين بالكفار حالة مشروطة، وليست من الحالات الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل.

وشرط الاستعلاء الإيمان ومتطلبات الإيمان، والآية الكريمة المتقدمة صريحة في ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وإذا ضعف تمسك المسلمين بهذا الشرط والتزامهم به وبمتطلباته، فقدوا هذا الموقع الذي وصفهم الله به من الكفار.

٢. النهي عن الانبهار بالكفار

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾[١].

هذا نموذج من استغراق الحياة المادية للكفار يذكرها القرآن حتى لا ينبهر المسلمون بهم ولا يتهيبوهم، فهم يتعاملون مع المتع الحسية تعاملا غريزياً، وبرغم كل مظاهر المدنية والحضارة يبقون في قفص اللذة الراهنة لا يستطيعون الخروج والتحرر منها، ولا يعقلون من هذه الدنيا غير هذه اللذات الحسية التي يتمتعون بها.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[٢].

هؤلاء الكفار انغلقت مسامع قلوبهم عن الاستماع إلى دعوة الله، وعميت أبصارهم عن رؤية آيات الله في الكون، وصاروا لا يستجيبون إلا لهتاف الجسد من جوع وشبع وعطش وريّ واستمتاع بالجنس وتكاثر الأموال.

---

١. محمد: ١٢.

٢. الأنفال: ٢٢ - ٢٣.

ومن هنا ينهى القرآن عن الانبهار بالكفار، يقول تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[1].

هذه الأموال والأولاد تضاعف من عذاب الكفار بالدنيا وتعلقهم بها، ولا ينبغي أن تكون مدعاة لإعجاب المسلمين وانبهارهم... ولا ينبغي أن تنشدّ إليها نفوس المؤمنين وعيونهم.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[2].

٣. تحريم مودتهم ومحبتهم

يقول تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[3].

هذه الآية تقرر أن موالاة الكفار لا تجتمع في قلب الإنسان مع الإيمان، والمؤمن لا يمكن أن يميل قلبه إلى الكافر حتى لو كان مرتبطاً به بالنسب إلى درجة الأبوة أو البنوة.

ولا يمكن أن يحب من يحادد الله ويشاققه، وقد كان المؤمنون بعد الإسلام يقاتلون آباءهم وإخوانهم، فلا يزيدهم ذلك إلاّ ثباتاً على الحق.

والقرآن ينهى عن ولاية الكافر ومودته حتى لو كان الأب أو الابن أو الأخ أو الزوج.

---

١. التوبة: ٥٥.

٢. طه: ١٣١.

٣. المجادلة: ٢٢.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾[1].

٤. البراءة من الكفار

يقول تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[2].

والبراءة من الكفار من أهم العناصر التي تحدد نوع العلاقة بالكافر، ويأمرنا القرآن أن نتخذ إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن أسوة لنا في البراءة من الكافرين.

وقد أعلن إبراهيم عليه السلام موقفه من الكفار في ثلاث نقاط:

أ. البراءة منهم ﴿إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ﴾.

ب. الكفر بهم ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾.

ج. التصريح بالعداوة والبغضاء المستمرة الدائمة حتى يعلنوا إيمانهم ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾.

هذا الشعور بالانفصال الكامل عن الكفار يصدر عن الإيمان العميق بالله والارتباط الصادق به، والولاء الصادق لله تعالى ورسوله والمؤمنين.

وإبراهيم عليه السلام يمثل هنا القدوة الحسنة والمثال التاريخي الحي في البراءة من الكفار والانفصال عنهم، والقرآن يصفه بالأسوة لأسرة التوحيد كلها ‹مِلَّةَ

---

١. الممتحنة: ١.

٢. الممتحنة: ٤.

أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[1]، فينبغي أن نقتدي به في البراءة من أعدائنا ونترك موالاتهم ومحبتهم ونحاكي أبانا عليه السلام في مواجهة الكفار وإعلان الانفصال عنهم والبراءة منهم... يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2].

٥. النهي عن الركون إلى الكفار

وكما ينهى الله تعالى المسلمين عن قبول نفوذ الكفار على بلادهم، كذلك ينهى المسلمين عن الركون إلى الظالمين، والكفار المحاربون من أبرز مصاديق الظالمين.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[3].

والركون إلى الكافر بمعنى المطاوعة والسكون إليه وقبول ولايته وسلطانه والانقياد إليه، كما يسكن الإنسان الى من يتولاه...

والركون مسألة نفسية، والنهي في هذه الآية من النواهي التي تتعلق بالأمور النفسية الداخلية، ومفاد ذلك هو أن لا يشعر المسلم في نفسه بالاطمئنان والسكون والارتياح الى الكافر والثقة به، ولا يجد في نفسه الميل إليه، ولا الرغبة في مطاوعته ومجاراته ولا ينزع إليه.

ثانيا: العلاقة الاجتماعية بالكفار

الفقرة الأخيرة في البحث هي العلاقة السلوكية الاجتماعية للمسلمين مع

---

١. الحج: ٧٨.

٢. الكافرون.

٣. هود: ١١٣.

الكافرين كما يصورها القرآن الكريم.

١. حرمة الاستعانة بالكفار

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[1].

يحرّم القرآن الاستعانة بالكفار واتخاذهم أعواناً ومستشارين لأسباب تشير لها الآية، فهم لا يألون جهداً في إيذاء المسلمين وإضرارهم، وتخريب أفكارهم وأسواقهم ومجتمعهم، وكلما توغلوا في صفوفنا زادونا خبالاً وفساداً وحيرة. والتعبير القرآني عجيب: ‹وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ›، إنهم يتمنون مشقتنا وعنتنا، ويعملون ويخططون ليضاعفوا من تعبنا وإرهاقنا، وقد تشبّعت نفوسهم بالحقد والكره والبغضاء علينا حتى أنها تُفلت من أفواههم دون اختيار أحياناً.

وإذا كان الكفار يحملون هذه المشاعر تجاهنا، فكيف نستعين بهم ونتخذهم مستشارين وبطانة لنا وأصدقاء - نضع فيهم ثقتنا - ونمكّنهم من أسرارنا وثرواتنا وقيمنا وأخلاقنا وعوائلنا وتراثنا؟!

٢. الإعراض عن الكفار

يأمرنا القرآن الكريم بالإعراض عن الكفار، وأن لا ننشغل بهم، ولا نتوقف عندهم، فإن من اهتمامات الكفار الهاء المسلمين وإشغالهم عن أنفسهم بمسائل وإثارات جانبية.

إنهم يجيدون خلق الإثارات التي تلهي المسلمين، وافتعال الأحداث التي تؤدي إلى الاختلاف والفتن داخل المسلمين. ولذلك يأمرنا الله تعالى ألّا نتوقف عندهم، وأن نمر عليهم ونتجاوزهم ونعرض عنهم، وذلك أقوى لإفشال مهمتهم

١. آل عمران: ١١٨.

في خلق الإثارات والإشاعات والاختلاف والانشقاق.

يقول تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

إنّ همهم من الخوض في آيات الله إثارة المشاكل، وافتعال الجدال الضار في صفوف المسلمين، واستدراج المسلمين إلى دوامة الجدال والحوار العقيم والاستهلاك الداخلي في المسائل الجانبية. والمسألة دقيقة، فلا ينبغي التوقف عندهم والاهتمام بهم وبما يحملون من إثارات، ويجب الإعراض عنهم... وفي نفس الوقت لا يجوز الاستهانة بهم وإهمال مراقبتهم.

والصحيح هو الأمران معاً: الإعراض عنهم، ومراقبة أعمالهم وتصرفاتهم.

ويقول تعالى في منهج مواجهة المؤمنين لهؤلاء الكفار: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[3].

والتعبير عن أدائهم الإعلامي والثقافي بـ (اللَّغْوَ) تعبير دقيق ومعبر، إنهم لا يحملون في أدائهم الإعلامي والثقافي لنا غير اللغو. ولا يجوز لنا الخوض في اللغو الباطل، الذي لا يأتينا بغير الاستهلاك للعمر وللجهد، ويؤدي إلى إفساد العلاقات الاجتماعية والسياسية.

٣. الغِلظة في التعامل

كما أن من أدب الإسلام الرقة في التعامل مع المؤمنين، وخفض الجناح

١. النجم: ٢٩.
٢. الأنعام: ٦٨.
٣. القصص: ٥٥.

لهم، كذلك من تعليمات الإسلام الغِلظة في التعامل مع الكفار والمنافقين (الكيانات الاستكبارية الكافرة وأئمة الكفر).

يقول تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

وليس بين هذه الرحمة وتلك الغلظة والشدة تناقض في السلوك.

إن السلوك الأول من رحمة الإسلام وهو اللين والرحمة في التعامل مع المؤمنين. والسلوك الثاني من حكمة الإسلام في التعامل مع الكفار المحاربين والمنافقين لئلا نطمعهم في أنفسنا.

إن النهج الإسلامي الاجتماعي هو المقاطعة والمفاصلة مع المحاربين من الكفار والمنافقين، وللمقاطعة والمفاصلة الاجتماعية سلوك خلقي خاص وهو الغِلظة والشدة في التعامل.

كما أن منهج الإسلام في العلاقة مع المؤمنين هو الولاء والمواصلة والتعاون والتواصل، وللولاء والمواصلة سلوك أخلاقي هو البِرّ والرحمة والرقة واللين. وكل منهما حسن في موقعه.

٤. نفي السبيل للكفار على المؤمنين

يقول تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾[2].

إن السبيل هو النفوذ والسلطان، وقد نفى الله تعالى كل نفوذ وسلطان للكافرين على المؤمنين.

وواضح أن هذا النفي ليس على ظاهره نفياً تكوينياً؛ أي ليس بمعنى أنه لم

---

١. الفتح: ٢٩.

٢. النساء: ١٤١.

يخلق الله للكافر نفوذاً على المسلمين، فما أكثر نفوذ الكافرين على المسلمين في فترات التاريخ، وما أكثر نفوذ الكافرين على المسلمين في الأسواق والتجارة والاقتصاد وفي الشؤون العسكرية وفي الإعلام والسياسة اليوم وقبل اليوم... إن أمريكا تستخدم نفوذها اليوم على العالم الإسلامي من وراء البحار، فتنصب وتعزل، وتدير الانقلابات العسكرية وتهدد، فهو أمر قائم في حياتنا... فما معنى نفي السبيل إذن؟

إن معنى (النفي) هنا (النهي) و(نفي الشرعية)، ومعنى الآية الكريمة: إن الله تعالى حرّم على المسلمين أن يقبلوا للكافرين نفوذاً على جيوشهم وأسواقهم وحكوماتهم وثقافتهم... وعليهم أن يرفضوا كل نفوذ وسلطان للكافر عليهم.

وليس ذلك بمعنى رفض التعامل مع الكافر بصورة متكافئة سياسياً واقتصادياً وعلمياً، وإنما هو بمعنى رفض قيمومة الكافر ونفوذه على المسلمين.

فهرس المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. نهج البلاغة، جمع وشرح الشريف الرضي، طهران - إيران: مؤسسة نهج البلاغة، ١٣٧٢ هـ ش.

٣. العاملي، زين الدين بن علي الجبعي (الشهيد الثاني)، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، قم - إيران: مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ ق.

٤. الآمدي، عبد الواحد التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، تحقيق: مهدي رجائي، قم - إيران: دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٠ هـ ق.

٥. الآمدي، عبد الواحد التميمي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، تحقيق: مصطفى درايتي، قم - إيران: مكتب التبليغ الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٦٦ هـ ش.

٦. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، طهران - إيران: دار الكتب الإسلامية، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ هـ ق.

٧. الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن،

طهـران - إيـران: ناصـر خسـرو، الطبعـة الثالثـة، ١٣٧٢ هــ ش.

٨. الصــدوق، محمــد بــن بابويــه القمــي، الأمالــي، طهــران - إيــران: كتابچــى، الطبعــة السادســة، ١٣٧٦ هــ ش.

٩. المجلسـي، محمـد باقـر، مـرآة العقـول فـي شـرح أخبـار آل الرسـول، طهـران - إيـران: دار الكتـب الإسـلامية، ١٣٦٣ هــ ش.

١٠. الطوسـي، أبـو جعفـر محمـد بـن الحسـن، مصبـاح المتهجـد، بيـروت - لبنـان: مؤسسـة فقـه الشـيعة، ١٤١١ هــ ق.

١١. الليثـي، علـي بـن محمـد الواسـطي، عيـون الحكـم والمواعـظ، تحقيـق: حسـين البيرجنـدي، قـم - إيـران: دار الحديـث، الطبعـة الأولـى، ١٣٧٦ هــ ش.

إصدارات مؤسسة حفظ ونشر تراث الشيخ الآصفي ﷺ

سلسلة المقاومة في فكر العلامة الآصفي:

١. فصول المقاومة
٢. الوعد الصادق، دلالات ودروس انتصار حزب الله على إسرائيل
٣. مقاومة الاحتلال الإسرائيلي
٤. النصر الإلهي ومنهج التعامل مع الأعداء (هذا الكتاب)

كتب متنوعة:

١. شرح دعاء الأسحار
٢. الثقافة القيادية والقرآنية في القرآن والسنة

ما أروع القلوب المؤمنة في ساعات المحنة، وفي ساحات القتال، وداخل زنزانات السجون، وتحت سياط الجلادين! إنها ثابتة مطمئنة، مرتبطة بالله، ساكنة، مستقرة، كأنها قُدّت من زُبر الحديد، وما قيمة الحديد تجاه صلابتهم واستقرار قلوبهم؟!

ومن أوضح الحقائق وأبسطها أنّ أصحاب هذه القلوب لا يتخطاهم النصر، مهما طالت محنتهم وتعاظمت.

مؤسسة حفظ ونشر
تراث الشيخ الآصفي رحمه الله